

زرافة محمد على

من مجاهل افريقيا الى قلب باريس

بقلم : مايكل آلين

ترجمة : مجدى شرشر



سلسلة شهرية تصدر عن
دار الهلال
الإصدار الأول يونيو ١٩٥١

رئيس مجلس الإدارة مكرم محمد أحمد
رئيس التحرير مصطفى نبيل
مدير التحرير عادل عبدالصمد

مركز الادارة
دار الهلال . ١٦ ش محمد عز العرب
ت : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
فاكس : FAX -3625469

العدد ٦٠١ - شوال - يناير ٢٠٠١
NO- 601- JA - 2001

أسعار بيع العدد فئة ٥٠٠ قرش
سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ١,٥ دينار - السعودية ١٥ ريال - البحرين ١,٥ دينار - قطر ... مان ١,٥ ريال.

darhilal@...

اهداءات ٢٠٠١

المهندس/ محمد عبد السلام العمري
الإسكندرية

زرافة محمد على

من مجاهل أفريقيا
إلى قلب باريس

تأليف : مايكل آلين
ترجمة : مجدى شرشر

●

دار الهلال

الغلاف للفنان :
محمد أبو طالب

مقدمة

بقلم: مصطفى نبيل

جذبنى إلى هذا الكتاب أنه حكاية شيقة تحمل كل عناصر الدراما البشرية ، جمع صاحبها شتات مادته من الواقع فبحث فى الأوراق القديمة ، سواء كانت خطابات أو صحفاً أو وثائق ، ونسج قصة تصلح لكى تكون فيلما سينمائيا غنيا بالإثارة والفائدة .

وعند قراءة الكتاب تذكرت النصيحة الغالية التى كان يرددها الاستاذ يحيى حقى للأدباء الشبان ، وهو أن يقوم كل واحد منهم بتجميع أطراف واقعة تاريخية ، وما أكثرها ، وإعادة نسجها فى قصة جذابة ، مثل خروج رفاعة رافع الطهطاوى من قريته وتعليمه فى الأزهر وسفره إلى باريس ، أو قصة صفية السادات مع الشيخ على يوسف وغيرها الكثير من القصص تبحث عمَّن يتناولها ويقدمها للجيل الجديد من القراء ، وقد برع الكاتب أبو المعاطى أبو النجا فى السير فى هذا الطريق ، عندما كتب «عائد من المنفى» وتناولت قصة عبد الله النديم فبعث فيه الحياة .

وزرافة هى بطلة قصتنا ورابطة العقد فيها ، من خلال حكايتها يقدم الكاتب مايكل آلين عالمين متباينين عالم الشرق وعالم الغرب

من خلال زرافة دخلت التاريخ عندما أهداها محمد على والى مصر إلى الملك شارل ملك فرنسا ، وتتبع الكاتب هذه الزرافة منذ وقوعها فريسة فى أيدى الصيادين فى سنار بالسودان ثم نقلها إلى الاسكندرية ، وركوبها البحر من الاسكندرية إلى مرسيليا ومن مرسيليا حتى وصولها إلى باريس ، وكيف استقبلها الفرنسيون ، وأصبحت هذه الحكاية التى يربطها خيط واحد هى مدخل الحديث عن حضارتين ، وطرائف الحياة فى مجتمعين ، الشرق والغرب ، مصر وفرنسا ، ومتابعة الأوضاع الاجتماعية والأحداث السياسية المختلفة ، ويتحول حديثه ذاك إلى كائن حى من لحم ودم .

ويحكى كيف جذبت الزرافة اهتمام المواطن الفرنسى المولع بالجديد والغريب ، والمتطلع فى فضول إلى العالم من حوله .

وهى قصة تقدم الكثير من الدلالات وتؤكد استحالة التحالف بين الأقوياء والضعفاء ، وأن التحالف الصحيح لا يكون سوى بين الأنداد ، ولا يؤدى تحالف القوى مع الضعيف إلا أن يصبح الضعيف وقوداً لصالح القوى ، ولا يحقق التحالف حتى تجنب الضعفاء شرور الأقوياء ، فبعد كل ما قدمه محمد على لفرنسا ، اشتركت فرنسا فى فرض الاستسلام عليه فى نافارين . وما وقع

لمحمد على وقع بعد ذلك للخديو اسماعيل ووقع أخيراً لجمال عبد الناصر . فكل منهم عمل على تحديث مصر .

ولا يفوتني أن أذكر اختيار عالم حيوان هو جوفرواسان - هيلير لمصاحبته الزرافة من مرسيليا إلى باريس وهو أكبر عالم فى تخصصه ، ومنذ وصولها بدأت الدراسات والأبحاث على ذلك الحيوان الغريب والجميل القادم من أدغال أفريقيا .

* * *

وجمع شتات حدث تاريخى وتقديمه فى صورة شيقة ، هو أحد طرق الكتابة التى ازدهرت فى أمريكا لجذب القارىء وانتعاش دور النشر ، وتقديم الحقائق والمعلومات فى ثوب شيق ، ومع جهد شاق فى البحث والتوثيق ، وهذا الكتاب يشابه فى منهجه ذلك الكتاب الذى يروى عقد أول معاهدة عربية أمريكية ، بين كل من عمان والولايات المتحدة التى كتبها هيرمان آيلتس والتى تحكى قصة الباخرة سلطانة ، ووصولها إلى نيويورك سنة ١٨٤٠ ، والهدايا التى حملتها إلى الرئيس الأمريكى من السلطان سعيد بن تيمور ، الذى تولى الحكم فى عمان وزنجبار مدة اثنين وخمسين عاماً (١٨٠٤ - ١٨٥٦م) ، والذى كان معاصراً لمحمد على ، والذى تضمنت الهدايا فرسين للسباق النجدية ، وسيفا مطعما بالذهب ، وعقدا من اللؤلؤ وسبيكة من الذهب ، وسجادة حرير عجمى .

وقام الكاتب الدبلوماسى بالتوقف عند واقعة قديمة ، جمع تفاصيله ، من مصادر مختلفة ، وأعاد ترتيبها ، ووضع كل حدث فى سياقه التاريخى ، ونقل عصراً بأكمله بشخوصه وألوانه وأزيائه ومعتقداته ، وهو ما فعله من بعده كتاب الزرافة ، وعندها تبدو الواقعة التاريخية بعين جديدة .

وهناك مشروع روائى ضخم ، يسير على ذات المنوال ، يقوم به الكاتب الأمريكى جور فدال ، والذى يحكي خلاله سيرة الولايات المتحدة الأمريكية ، فإذا كان العمل الدرامى يقوم على الخيال ، إلا أنه يلتزم التزاما دقيقا بالوقائع التاريخية ، وروايته الأولى بعنوان «بار» وهو اسم نائب الرئيس الأمريكى چيفرسون ، وكتابه الثانى بعنوان « لنكولن» ، والثالث أطلق عليه ١٨٧٦ وهى السنة التى تزدحم بالأحداث الأمريكية العامة ، ورابع كتبه بعنوان «إمباير» ثم رواية بعنوان «واشنطن» .

ومن خلال هذه الأسفار يروى التجربة الأمريكية بصورة شيقة وناقدة وصريحة ، وينقل التاريخ الحقيقى لبلاد بلا زيف ، ويضعه أمام القارىء فى سهولة ويسر .

وهو مجال مهم مازال يبحث عن الذى يقوم به من أدبائنا الشبان .

كلمة المترجم

فى رحلة شيقة عاد بنا الكاتب مايكل آلين مبحرا عبر قرنين من الزمان يميط لنا اللثام عن حدث مهم فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ينطوى على دلالة بالغة الأهمية لطبيعة تلك العلاقات وأبعادها وتفاعلها ورؤية كل منهما للآخر، علاقة جمعت بين الغرب الذى خبر التنوير واجتاز عتبة التخلف منطلقا نحو ترسيخ حضارته التى ساهم الشرق العربى بقسط ليس بالقليل فى ارساء دعائمها بما استوعبه الغرب من التراث العربى الاسلامى ، ويعيد الحدث تذكيرنا بأن تقليد الأهداء ليس بالجديد بين الحضارات لكن جديده هذا المرة هو تبدل المواقع بين الجانبين وتغير المصالح المبتغاة من الاهداء. ولا يغيب عنا هدية هارون الرشيد الى شارلمان ملك الافرنج قبل أكثر من ألف عام على ظهور محمد على حين كانت دولته حاضرة التجارة والعلم والآدب فى عالمها وإن كان محمد على قد أهدى فرنسا أول زرافة فى تاريخها ساعيا وراء حليف اوروبى قوى يستطيع من خلاله تحقيق حلمه فى

استقلالية مصر وبناء قوتها وتحديثها وتحييد قوى أوروبية لم تكن تخفى تلمظها لإبتلاع مصر فلم يسع من وراء هديته سوى أن يعيد الى البلد الجميل الذى أحبه دوره الذى طالما اضطلعت به دولة محورية فى محيطها تتفاعل دائما مع بيئتها العالمية غير منكفئة على نفسها، وإذا كانت الهدية لم تحقق الهدف منها فقد أكدت مبدأ أزليا فى التاريخ هو أنه فى العلاقات الدولية ليس هناك صداقات دائمة أو عدوات دائمة بل هناك مصالح فقط، مصالح تتحرك جميع الدول تبعا لها وتضبط ايقاع تلك الحركة .

وربما ظل الحدث متواريا عن الأنظار فى كتابات متناثرة مجهولة هنا وهناك أو نسيا منسيا فى أضابير أرشيف القاهرة أو مرسيليا شأن حوادث كثيرة دالة فى تاريخ الشعوب لولا الجهد الوافر الذى قدمه آلين فى أول كتاب له، هذا الكتاب الذى يقف وراءه اهتمامه أصلا بحديقة النباتات فى باريس وحرصه على متابعة ماينشر عنها لأكثر من خمس وعشرين عاما منذ أن كان طالبا فى الجامعة يعمل فى مكتبتها ثم بمكتبة أخرى بعد تخرجه من الجامعة وقاده هذا الاهتمام للبحث عن كل شىء عن الحديقة حتى وقعت عيناه على فقرة فى صحيفة «نيويوركر»، عن زرافة

وصلت فرنسا قادمة من مصر لتخلب لب الفرنسيين وتثير ولعهم حين شاهدوا أول كائن من هذا النوع الفريد على أرض وطنهم يرتحل فى موكب رهيب لمسافة (٥٥٠) ميلا من مرسيليا الى باريس كما لو كان نسخة أخرى لموكب قطر الندى . وراح آلين على مدى عقد كامل ينقب عن تلك الزرافة فى كتب العلماء والرحالة والروائيين وكتب الأطفال ورسوم فنائى الكاريكاتير والرسامين ليسقط فى غرام تلك الزرافة الجميلة مؤرخا لها منذ وقوعها فى الاسر فى سنار فى أوائل عشرينات القرن التاسع عشر راسما تفاصيل رحلتها من الاسر حتى انتهى بها المطاف مرفوعة وهى محنطة على قاعدة بالمتحف تنبض فيها الحياة .

وبعد ١٧٢ عاما من مولد الساحر الافريقية ملكة القلوب (الزرافة) التى اشتق اسمها من العربية لتتداوله جميع الآلسنة بالانجليزية (جيراف) وبالفرنسية (لاجيراف) وبالايطالية (جيرافا) عاد آلين ليقتفى أثر رحلة الزرافة عام ١٩٩٦ من سنار حتى متحفها الفرنسى مرورا بالرحلة النيلية فالقاهرة وأرشيفها الذى سجل كل كلمة تفوه بها محمد على أثناء حكمه لمصر وظل منسيا فى الاقبية ترعى فيه الفئران والأفاعى حتى اكتشفه الملك فاروق

عام ١٩٣٨ وأمر بترجمته للعربية وحفظه ليخرج لنا هذا التاريخ الذى بين أيدينا عن هذا المخلوق البديع .

ورغم الجهد الذى بذله المؤلف كاشفا فيه مدى الجرم الذى ارتكبه كثير من الأفاقين والمغامرين الأوربيين وإن تستروا وراء واجهة مناصب أو مواقع براقة من أمثال دروفيتي وهنرى صولت بالتكالب على نهب تراث مصر لكن يستعصى على الفهم هذا التحامل الشديد على محمد على مما يتضح من وصفه لجهوده فى تحديث مصر بالبربرية (الفصل الثالث) ليثير بهذا قضية بالغة الأهمية تتعلق بمدى موضوعية المعايير التى تستخدم فى تقييم تجربة تاريخية ما والحكم عليها فنحن نراه فى كتابه ينتزع تجربة محمد على الفريدة من سياقها التاريخى قبل نحو قرنين ليصدر أحكامه عليها بمعايير القرن العشرين مع البون الشاسع فى انماط القيم والظرف التاريخى والبيئة العالمية والاقليمية والدولية والمحلية لعالم القرن التاسع عشر .

لقد أغفل الكاتب أو لم يدرك القيمة الحقيقية لتجربة محمد على الثرية التى أنصفه فيها كثير من الكتاب الغربيين كما فعل هنرى دودويل فى كتابه «محمد على مؤسس مصر الحديثة» .. الرجل

الذى انتشل مصر من براثن التخلف والفوضى والظلام السحيق زعيما سعى وراء التقدم حتى مع الاختلاف فى وسائله لتحقيق هذا التقدم بالبربرى .

لقد وعى الرجل طبيعة النظام الدولى الذى عاشه وتفاعل معه وتحدث بلغته وتحرك فيه بكل جدارة ليضع بلده فى الموقع اللائق بها لكن صراع القوى والخوف من تنامى قوة مصر هو الذى أجهض تلك التجربة العظيمة فى تاريخ مصر الحديث. واللافت ايضا هذا الخلط فى المفاهيم والمصطلحات لدى آلين شأن كثير من الكتاب بل والأكاديميين الأمريكيين كربطه الاسلام بالتخلف التكنولوجى الذى عاشته المجتمعات الاسلامية زمن الحملة الفرنسية وربما حتى الآن ناسيا أنه لا علاقة للاسلام كقيمة انسانية نبيلة بحالة المجتمعات التى تعتنقه ولو أنه أمعن قراءة الطهطاوى الذى استشهد بكتاباته فى جانب من الكتاب لما وقع فى مثل هذا الخلط والتشوش . كذلك استخدامه مصطلح الشرق الأوسط وهو اصطلاح سياسى حديث لم يكن له أى وجود أو دلالة سياسية أو قانونية فى ذلك الزمان .

وكان يستحسن أيضا أن يزودنا بمزيد من التفاصيل عن الجنديين الباسلين فى حياة الزرافة حسن وعطير اللذين لولاهما لربما لاقت الزرافة نفس مصير زرافة الاستانة .

غير أن أيا من تلك الملاحظات لا ينال من قيمة العمل الذى قدم صورة نابضة بالحياة لمجتمعات ذلك الزمان محليا وعالميا واجتماعيا واقتصاديا وسياسيا وجاء ليؤكد ديمومة وأصالة التواصل الحضارى حتى وإن جسدته زرافة بين الكيانات الدولية رغم تبدل المواقع وتغير المصالح .

الفصل الأول

قارتان أفريقيتان مختلفتان

فى الخرطوم يمتد جسر شمبات عبر البداية الأولى لنهر النيل . وإلى الجنوب تماما من الجسر توجد حافة جزيرة توتى كثيفة الأشجار التى يلتقى حولها النيل الأزرق مع النيل الأبيض دون أن يمتزجا بل ليشكل مجرى النهرين عند هذا المقرن بداية نهر جديد.

وعلى بعد ألفى ميل من منبعه فى بحيرة فيكتوريا على خط الاستواء يصبح النيل الأبيض على جانب أم درمان إلى الغرب أعرض وأبطأ . أما النيل الأزرق فيقطع نصف تلك المسافة فقط ، يراوغ خارجا بإتجاه الجنوب على شكل قلب لبحيرة تانا قبل أن ينحرف غربا وشمالا يتلوى خارجا من أثيوبيا . ويخلو النيل الأزرق لعنفوان جريانه من الدودة الطفيلية المفلطحة التى تسبب البلهارسيا (التى يطلق عليها أيضا إسم حمى القواقع) وعرضها

الرئيسى هو آلام البطن، والتى إبتلى بها النيل الأبيض منذ أن كان العالم الثالث عالما أول .

وفى عصر الزرافة وما قبله ، وإلى أن روضت السدود المقامة عند سنار بدءا من النيل الأزرق ، كان فيضانه الصيفى الجارف الأشد قوة يعوق النيل الأبيض حتى الجمود عند الحافة الجنوبية لجزيرة توتى . ويساهم النيل الأزرق بنسبة خمسة وثمانين بالمائة من الفيضان السنوى للنيل ليخصب صحراء مصر بالطمي الأسود القادم من الهضبة الأثيوبية.

واليوم وحتى مع وجود السدود على النهرين يكتسى النيل الأزرق بلون بنى داكن فى الصيف ، حيث لا يزال شهر أغسطس هو شهر مراقبة الفيضان بالخرطوم ، فيما النيل الأبيض يزحف دونما عوائق فى مجرى أعرض ببطء شديد يفقده لونه اللبنى الأزرق . وعندئذ يكون النهران فى قمة تناقضهما فى اللون والطباع وتجتمع قارتان أفريقيتان مختلفتان وتتصادمان لعدة أميال قبل أن تندمجا تدريجيا .

وعند الانحدار يتراجع هذا التفاوت إلى مجريين مختلفين يتموجان جنبا إلى جنب تحت جسر شمبات ويكون النيل الأزرق

الأعمق والأسرع أزرق بحق . وعند المقرن يبدو النيل الأبيض متهالكا عجوزا يبلغ عرضه نصف ميل حتى فى مرحلة الجزر السنوية ويصير ضحلا قبالة جزيرة توتى لدرجة أن الصيادين ينزلون من قواربهم عند أول وآخر ضوء ليطرحوا شباكهم بوسط المجرى .

وعلى الضفة الشرقية جنوب جزيرة توتى يمتد الرأس البحرى يجاوره النهران وعليه أقام المصريون فى عهد الأمبراطورية العثمانية حاميتهم الحربية التى أصبحت الخرطوم . واسم الخرطون لفظ مشتق من الأسم العربى لزلومة الفيل ويفترض المؤرخون ودليل السائح فى الغرب أنه يستخدم لوصف شكل الرأس البحرى . لكن زلومة الفيل لا تشير فى الحقيقة إلى هذا الرأس البحرى . فثم قرية على النهر أستوطنها العرب (المحس) كانت تحتل هذه الزاوية الناتئة من الأرض المحصورة بين النهرين لنحو قرنين من الزمان على الأقل قبل أن يؤسس المصريون عاصمتهم هنا عام ١٨٢٤ . وأقدم أنحاء هذه القرية معروف بخرطومه وهو بروز صخرى لايزال قائما بالقرب من خلوة ومسجد القرية الذى يعود إلى القرن السابع عشر وهو أول مابنى بها ويقع

شرق الرأس البحرية وأطلق المصريون اسم تلك الناحية على مدينتهم .

وعاش (المحس) فى القرى الواقعة على أنحناءة أعالى النيل فى السودان والنوبة وأينما اكتشفوا هذه الحقيقة الطبوجرافية لهذا النوع من الصخور يبرز قرب المياه أو يخرج منها أطلقوا عليه إسم الخرطوم . وقبل زمن طويل من وصول المصريين كانت هناك سبعة أماكن إلى الجنوب من كلابشه تحمل إسم الخرطون . وفى انحناءاته نحو الشمال عبر السودان على مدى ألف ميل كان يعترض مجرى النيل ستة شلالات فى المسافة بين الخرطون حتى أسوان قبل أن تبنى سدود القرن العشرين على النهر . (ولا يوجد الآن سوى خمسة شلالات فقط فالشلال الثانى الذى كان يوجد على الحدود المصرية السودانية مطمور الآن بقاع بحيرة ناصر . وتلك الشلالات ليست مساقط مياه بالفعل بل هى سدود طبيعية من الصخور رمادية اللون مثل الفيل يغمرها فيضان الصيف بدرجة أو بأخرى . وحتي قيام الحاميات المصرية فى العصر العثمانى بتأمين أعالى النيل أوائل عشرينات القرن التاسع عشر لم تكن خطورة الشلالات لتجعل النهر غير صالح للملاحة بقدر خطورة

الإبحار فيه بسبب المحس والقبائل الأخرى من المحاربين المسلمين الذين يعيشون على ضفاف النهر .

وفى القرون السابقة على وصول المصريين كانت تلك القبائل تنقض على القوافل التى تربط وسط أفريقيا بالقاهرة وبالعالم . والتماسا للسلامة فى الأعداد الكبيرة كانت تلك القوافل عبارة عن تجمعات ضخمة للغرباء والتجار يضم بعضها عائلات بأسرها ترتحل مسافرة على مدى سنوات من سوق إلى سوق ومن قافلة إلى أخرى جيئة وذهابا عبر أفريقيا والشرق الأوسط بل وعلى طول الطريق إلى الصين .

وكانت أكثر القبائل المسلمة رهبة على ضفاف النيل هى قبائل الشايقية التى توجد بين الشلالين الرابع والخامس . ولتجنب بطشهم كانت قوافل الشمال والجنوب تهجر النيل بين بربر وأسوان لمسافة أربعمائة ميل مهلكة عبر الصحراء غير مزودة سوى بالنزر اليسير من الماء . وعلى هذا المعبر الصحراوى طبع الزمن علامات مميزة لا تنسى تتمثل فيما تناثر من الهياكل العظمية للجمال التى ذبحت بعد أن تهاوت على الطريق . أما البشر الذين عجزوا عن الاستمرار فقد نهبهم رفقاءهم

وتركوهــم للمـوت أو القـتل على يد اللصـوص الذين تتـبعـوهـم وتربصوا بهم .

وعبر القرون كان الطريقان الرئيسيان للقوافل عبر أفريقيا - سنار إلى البحر المتوسط ؛ ومن تمبكتو إلى البحر الأحمر ؛ أثرا للعبيد ، للحضارات المتعاقبة للشرق والغرب - ومع مرور الوقت للأمريكيين . وكان الطريقان يتقاطعان عند سوق العبيد فى شندى إلى الشمال مباشرة من الشلال الواقع بأقصى الجنوب .

ومن قبل التغيرات المناخية التى أوجدت الصحراء قبل ثمانية آلاف عام خلت وعندما كانت الزرافات والأفيال والحيوانات الأخرى تجوب مناطق السافانا التى تصل إلى البحر المتوسط عاش الناس بمحاذاة انحناءات النهر بأعالى النيل . وتراجعت الحيوانات إلى الجنوب قبل أن تسود درجات الحرارة اللافحة التى حفظت حتى الآن آثار مصر القديمة. لكن فى النوبة والسودان وعلى أى جانب للنهر ظل الإنسان محصورا فى واحة واحدة ضيقة تمتد لمئات الأميال يدعمه نظام للرى يعتمد على السواقى والشواديف التى تناثرت على امتداد النهر .

وعاش سكان القرى القديمة على النهر بين الشلالات على جنى المحاصيل وثمار البساتين وغابات أشجار السنط بنواراتها صفراء

اللون التى تنتج الصمغ العربى . والمادة الصمغية الموجودة فى خشب أشجار السنط مقاومة للحشرات والرطوبة وإلى جانب استخدامه فى إنتاج الفحم النباتى استخدم النوبيون خشب السنط فى صنع الزوارق والسواقى والشواديف . ولا تزال دنقلة عاصمة تلك المملكة القديمة مشهورة بأشجار نخيل البلح الكثيفة . ونزولا إلى جنوب النهر من دنقلة فهناك أدلة أثرية على أن النوبيين الأوائل بلغوا فى نهاية الأمر درجة من القوة لدرجة استرقاق العبيد من بين أسيادهم القدامى وأن هؤلاء الأسرى قد دفنوا أحياء مع جثث آسريهم النوبيين كما لو كانت قد حلت بهم لعنات أسلاف عبيدهم .

وربما كان تاريخ أعالى النيل فى العصور القديمة كطريق للرق مسئولا ولو بشكل جزئى عن نزعة الكرامة المرهفة والحضور المقرونة بمسحة من الحزن الدفين التى يبدو أنها قاسم مشترك لدى الكثير من السودانيين . وكانت جمهورية السودان التى استقلت منذ أكثر من أربعين عاما - وهى أكبر بلد أفريقى - على الدوام ملتقى الأعراق والظروف المناخية للقارة الأفريقية . ومثلما تتمازج الصحراء مع الغابات المطيرة على مسافة ألف ميل جنوبا

تتلاقى أفريقيا البيضاء مع أفريقيا السوداء وتتمازجان فى السودان ليحدث الانتقال من البشرة الداكنة للنوبيين فى الصحراء إلى اللون الأبنوسى اللامع للنوير والدنكا بالقرب من خط الاستواء.

ولعل أبرز ملامح السودان على الخريطة حرف (S) الكبير الملتوى الذى يتخذه مجرى النيل من الخرطوم حتى دخوله الحدود المصرية . وحرف (S) يعنى السودان الذى أشتق اسمه فى مصادفة طبوغرافية من اللفظ العربى المرادف (لسواد) المواطنيين الأصليين الذين واجههم المسلمون الأوائل فى أعالى النيل . وحرف (S) يعنى أيضا العبيد .

لقد كانت تجارة محمد على فى العبيد هى التى جلبت العرب الذين أسروا واعتنوا بالزرافة أيما عناية . فيالها من رحلة غامضة تلك التى قطعها الإنسان والحيوان الأسير خارجا من أفريقيا البدائية مارا بالنيل مخترقا صحراء تفوق الوصف لا يتصورها عقل . وعند أبوسمبل بين الشلال الثانى والأول كانت الكشوفات والتنقيب قد كشفت أخيرا عن التماثيل الأربعة الضخمة المنحوتة فى الصخر على الضفة الغربية للنهر لرمسيس الثانى يبدو كل

منهما للمراكب العابرة بوجهه الزنجي الضخم أشبه بالأسرى لا بالآسرين . وفى القاهرة كان أبوالهول بملامحه الزنجية أيضا يحدق فى الأفق وعمق عنقه وجسده مطمور فى الرمال حتى القرن العشرين فيما كانت معظم مصر القديمة لا تزال مدفونة إما تحت الرماد أو أنقاض راكمها الإنسان عبر القرون مثل معبدى الكرنك والأقصر على عمق ثلاثين قدما . وأوحى ماكان مرئيا من مصر للمسافرين الذين يركبون النيل زمن الزرافة أنهم يدخلون أرض عمالقة يشكلون جنسا متفردا بذاته .

لقد بدأ علم المصريات مثل قصة محمد على والزرافة التى أرسلها إلى باريس بحملة نابليون على مصر . فقبل ثمانية وعشرين عاما من رحلة الزرافة تركت القوات الفرنسية رسوماتها عن الآثار المصرية القديمة وخلفت وراءها الكارثة الكبرى لحملتها . فقد كان حطام سفنهم لا يزال متناثرا على الساحل عندما وصلت الزرافة إلى الأسكندرية . ومع هذا وفى تلك الفترة أصبحت أنقاض الهزيمة العسكرية للحملة مجرد ذكرى قياسا بإنجازها الفكرى الذى لا يبارى وتوحدت مصر وفرنسا فى إعجاب متبادل .

الفصل الثانى

كابوس ساحر

إننا ندين باكتشاف مصر القديمة لنابليون وجنود وعلماء حملته عام ١٧٩٨. فقد أطلق الإيمان بالتنوير فى العقل الإنسانى الجمعى فى القرن الثامن عشر الثورات الديمقراطية فى أمريكا وفرنسا ، وكان هذا الغزو العسكرى والعلمى لعالم أخر هو أول مغامرة كبرى فى الحقبة الجديدة .

وعندما أعدم الفرنسيون الملك لويس السادس عشر فى ٢١ يناير عام ١٧٩٣ كان نابليون إبن الثالثة والعشرين ضابطا صغيرا فى المدفعية طالما راق له التفكير فى الانتحار فى ساعة متأخرة من الليل على السين . وبعد خمسة أعوام فقط قاد الجنرال نابليون بلده إلى النصر فى الحروب التى جلبتها الثورة . ووقفت فرنسا وحدها فى وجه كل أوروبا وأصبح نابليون إلهام أمة الأبطال .

وعرضت الجمهورية الجديدة التى أغتنت من الانتصارات الباهرة التى حققها الجنرال الشاب فى إيطاليا والنمسا بإمتنان على نابليون قيادة جيش جديد يتشكل فى برست لغزو إنجلترا . ورفض نابليون هذا الغزو معتبرا أنه مستحيل أمام القوة البحرية المتفوقة لبريطانيا . ومع هذا فقد اقترح استمرار الاستعدادات فى برست بغية إبعاد القوات البحرية البريطانية والأسبانية الحليفة عن البحر المتوسط . وسوف تتيح تلك الحيلة لجيش فرنسى ثان كبير الإقلاع سرا من موانى مختلفة على المتوسط ثم يعيد تجميع نفسه فى البحر ويتجه صوب مصر ومنها يواصل غزواته برا لمختلف أنحاء الشرق الأوسط ثم يهدد فى نهاية المطاف الهند درة التاج البريطانى .

وأرجأت الحكومة الموافقة على تلك الخطة الجسورة حتى أبريل عام ١٧٩٨ لكن عبقرية نابليون التنظيمية ساهمت فى حشد جيش الشرق العظيم ليكون جاهزا للإبحار فى الأسبوع الثالث من مايو من طولون وجنوا وأجاكسيو وسيفيتافيكيا . كانت السرية محكمة لدرجة أن كافة عشرات الآلاف تقريبا الذين شاركوا فى العملية لم يكن لديهم علم بالجهة التى يقصدونها كما لم يكترث أحد بالأمر

مما يبرهن على الطاعة العمياء لنابليون . وأبحر «دومينيك - فيفان دينون» * موثق نابليون مع القوة الرئيسية من طولون ووصف الأسطول المشترك المؤلف من نحو أربعمائة سفينة بأنه مدينة عائمة تغطى البحر . وفى حمرة الغسق يصبح خط الأفق الذي يلف الأشرعة نسخة ذهبية لقباب وقمم أبراج كنائس مدينة البندقية وكأن تلك المدينة الفريدة حيث يلتقى الشرق بالغرب قد أطلقت نفسها لتتبع نجم نابليون نحو الشرق . وأحاط نجمه أيضا كوكبة من الحكماء هم مائة وأربعة وخمسون عالما فرنسيا رافقوا الجيش . كان أولئك الذين يستقلون سفينة القيادة (الشرق) هم وحدهم الذين يعرفون أن قائد المغامرة الوشيكة البالغ من العمر ثمانية وعشرين عاما أصيب بدوار البحر معظم أيام الرحلة .

أثبتت حيلة برست فعاليتها وتهاونت بريطانيا وأسبانيا فى استطلاع البحر المتوسط اقتناعا بأن السفن الفرنسية ستتجه

(*) كاتب وفنان نحات عاد بعد اصطحاب نابليون فى حملته بمجموعة نادرة من الصور التى رسمها ووضع كتابه «رحلة فى الوجه البحرى ومصر العليا أثناء حروب الجنرال بونابرت» ورسم بعض معارك الحملة فى كتابه ، تولى إدارة المتاحف الفرنسية وانتخب عضوا فى المجمع العلمى الفرنسى .

(المترجم»

صوب الغرب إلى المحيط الأطلنطى عبر مضيق جبل طارق للانضمام إلى الغزو الوشيك لإنجلترا . وتجنب أسطول نابليون الاحتكاك بالخصم وبعد الاستيلاء على مالطة وترك أربعة آلاف جندى للسيطرة عليها وصل إلى الاسكندرية فى الأول من يوليو .

وقاد نابليون بنفسه طليعة قوات مكونة من خمسة آلاف جندى إلى الشاطىء للإستيلاء على الحامية الحربية ليلا وتأمين إنزال بحرى للأسطول دون مقاومة . وخلال الأيام القليلة التالية نزلت بقية القوات وعددها ٢٩ ألف جندى بإمداداتهم وأسلحتهم . وتيقنا من أن السفن تعد هدفا حربيا إذا ظهر البريطانيون فقد أمر نابليون السفن بالتماس الأمان فى كورفو بعد اكتمال عملية الإنزال . وفى السابع من يوليو بدأ مع الجيش مسيرته عبر الصحراء بإتجاه القاهرة والمماليك .

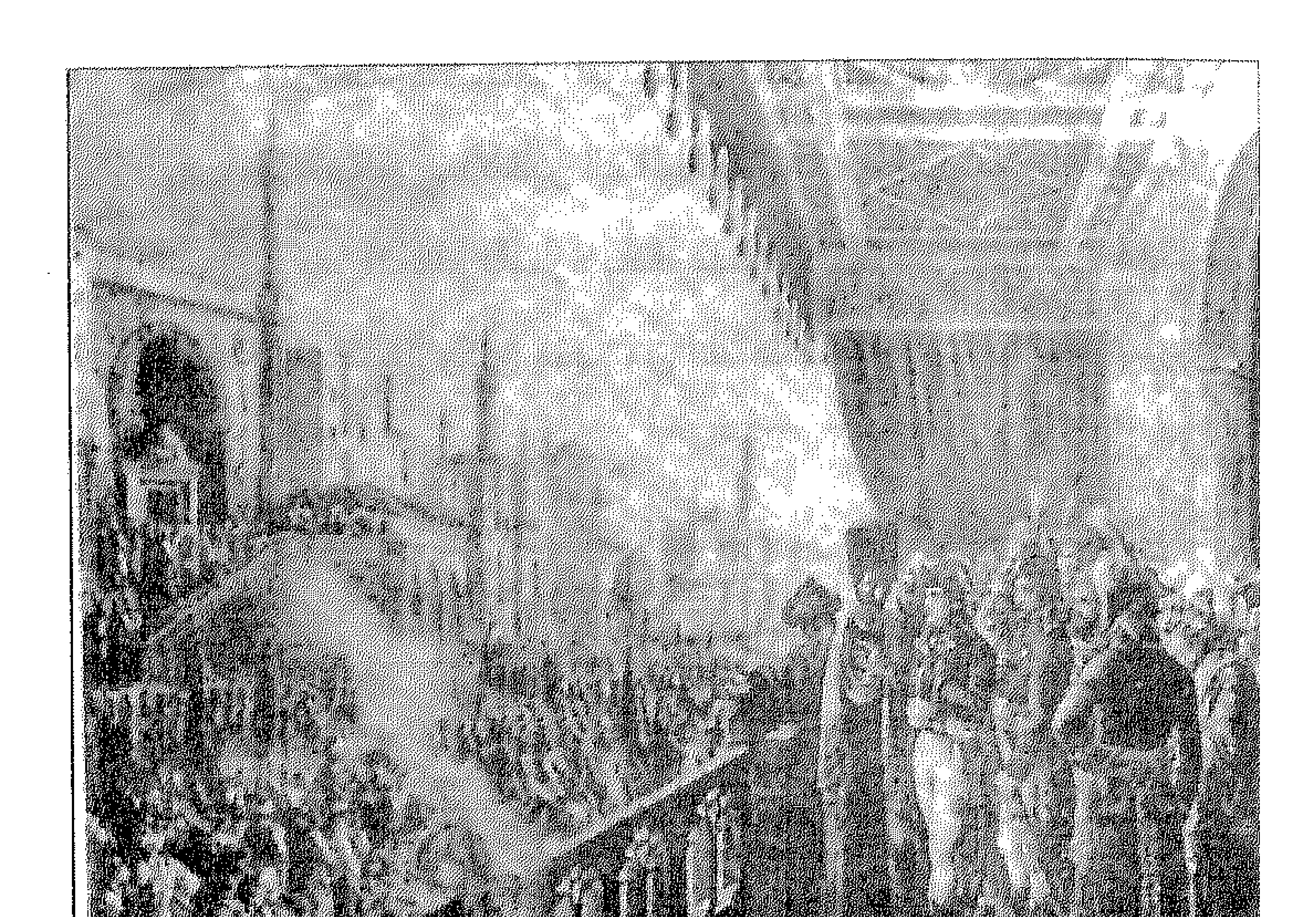
ويعتبر المماليك ظاهرة ثقافية غير مألوفة فى عهود سابقة للإسلام . وتدرب المماليك ، وهم فى الأصل طائفة من العبيد الأوراسيين غير العرب كانوا يقتصرون على الأطفال الذين لم يقعوا فى الأسر بل باعهم آباؤهم من القبائل الرحل ، ليكونوا جنودا محترفين فى جيوش الحكام المسلمين . وبحلول القرن الثالث

عشر كان هؤلاء العبيد المحاربون ذوى العيون الزرقاء قد خلقوا مجتمعهم الخاص المغلق بحيث يقتصر ولاؤهم فقط على من يدفع أكثر . وفى عام ١٢٥٨ عاث جنكيز خان إمبراطور المغول خرابا ودمارا فى بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية وانتهز المماليك تلك الفرصة ليغتصبوا سلطة أسيادهم الذين دب الضعف فيهم، وسرعان ما حكموا معظم بلدان المنطقة وكانوا أكثر رهبة فى مصر . وبينهم كان الثمن الذى جلبوه كأطفال هو مسألة المكانة والفخر . وقد عرف بيبرس وهو أول سلطان مملوكى لمصر بالألفى نسبة إلى مبلغ المال الذى يحوزه ويتداوله . وكمقاتلين اتسموا بالوحشية وبرعوا فى الفتن والصراعات الطائفية وأعمال العنف وعاشوا بدون زواج واستكملوا صفوفهم بعبيد من الشباب الأوراسى ، تملكت النزوات المماليك المصريين وأصبحوا المعادل الشرقى لفرسان الأقطاع فى أوربا فى القرون الوسطى وتمكنوا من هزيمة الحملة الصليبية السابعة من عام ١٢٤٨ حتى عام ١٢٥٤ بعد انتصارهم فى بادىء الأمر فى دمياط وأسرهم ملك فرنسا لويس التاسع وكامل جيشه المؤلف من ١٥ إلى ٢٥ ألف صليبى مقابل الفدية .

وظلت الطبقة المملوكية الحاكمة التى تقدر بعشرين ألفا تحتفظ باستقلاليتها حتى بعد الخضوع للأمبراطورية العثمانية عام ١٥١٧ . وكانت القاهرة تدفع الجزية للآستانة لكن المصريين تعرضوا لأبشع أشكال الاستغلال من المماليك . وعاش المماليك فى بذخ وترف ينطوى على أبهة متنافرة لدرجة تبرزها الكتب الأوربية كما لو أن مؤلفيها قد صدموا من هذا اللهو لكنهم أعجبوا بزخرفه.

وعن المماليك كتب المستشرق الإنجليزى ستانلى لين - بول من أواخر القرن التاسع عشر يقول : «هم زمرة من المغامرين الذين لا يعرفون معنى الإلتزام بالقانون ، عبيد فى الأصل ، قتلة باختيارهم، سفاحون ، خونة غالبا ، وقد أولى هؤلاء الملوك العبيد اهتماما وتقديرا عظيما بفنون كانت كفيلة بجلب العظمة لأعظم حاكم دستورى يعتلى عرشا دستوريا» .

وأعجب نابليون أيما إعجاب من الوهلة الأولى بقوة متقدمة تضم ثلاث آلاف مملوك أظهروا شجاعة فائقة بالاشتباك مع جيشه الذى يفوقهم عددا إلى حد كبير : «جسد رائع للفرسان ، يلمعون جميعا بالذهب والفضة ، مسلحون بأفضل البنادق والمسدسات الانجليزية وبأمضى سيوف الشرق وربما يمتطون أفضل جياد فى القارة» .



نابليون في القاهرة

لكن وبعد أحد عشر يوما وفى معركة الأهرامات فى الحادى والعشرين من يوليو عام ١٧٩٨ لم يكن بمقدور ستة آلاف مملوك مجاراة المدفعية وانضباط الفرنسيين تحت النيران . ووصف دينون الهجوم الانتحارى الأخير للماليك بقوله : «ألقى خلاصة فرسان الشرق وربما العالم بأسره بأنفسهم فى مواجهة فيالق صغيرة مدججة بالسناكى وكان منهم من اشتعلت النار فى ملابسه بنيران أسلحتنا» .

وغرق الكثير من المماليك المتقهقرين فى النيل فيما تشتت الناجون ما بين أعالى النيل والصحراء . واستسلمت القاهرة فى اليوم التالى لتهدى مفاتيح المدينة إلى نابليون . وانتهت خمسمائة عام من حكمهم لمصر بين عشية وضحاها بالمعنى الحرفى للكلمة .

وفى الوقت نفسه وفى الأسكندرية كانت معظم سفن الأسطول الفرنسى قد أبحرت بعيدا لكن سوء الأحوال الجوية تدخل وأدى إلى احتجاز سفن الحراسة بعيدا مما مكن الأسطول الإنجليزى من أكتشافها . وفى الأول من أغسطس أى بعد أحد عشر يوما من معركة الأهرامات حاصرت السفن البريطانية بقيادة الأدميرال الأعور ذى الذراع الواحد «هوراشيو نيلسون» سفن الأسطول

الفرنسى ودمرتها فى خليج أبى قير . وتناثر حطام السفن بطول إثنتى عشر ميلا على الشاطىء لتظل ملقاة ومبعثرة لعشرات السنين .

ولم تنج سوى أربعة من سفن نابليون الحربية من التدمير فى أبى قير . وبنفس السرعة التى فقد بها المماليك مصر تقطعت السبل بالفرنسيين فى غزوهم لمصر . واستطاعت البحرية البريطانية التى لم تتكبد سوى ٢١٨ قتيلا و٦٧٢ جريحا الإيقاع بنابليون وجنوده الأربعة وثلاثين ألفا فى الأسر بفعالية . أما فى الوطن فقد أصبح السلام الذي حققته انتصاراته فى أوربا غير قابل للتطبيق وخلال عدة أشهر عادت فرنسا الواهنة التى تعتريها الفوضى مرة أخرى لغمار الحرب مع كافة بلدان أوربا تقريبا .

وأضحت مصر بالنسبة لنابليون كابوسا طويلا ساحرا وصفه «بأنه أروع أيام حياتى .. متحررا من قيود المدنية المؤلمة» . وخلال العام التالى فى أفريقيا والشرق الأوسط أظهرت تناقضات عبقريته أقصى ذراها ليعجب بها محمد على ويحاكيها فيما بعد .

وفى القاهرة تناول نابليون الطعام بيديه على أرضية قصره الملىء بالوسائد . وارتدى العمامة وركب الجمل الذى حنط وعرض فيما بعد لسنوات فى متحف إقليمى فى فرنسا .

وأثناء وجوده فى مصر أعتنق نابليون الإسلام كخطوة دبلوماسية عملية وضم المفكرين العرب فى مصر إلى علمائه الفرنسيين فى مجمعهم العلمى «المجمع العلمى المصرى» . وانتخب عالم الفيزياء جوزيف فورييه (سكرتيرا دائما) لرؤسائه الثمانية والأربعين وكان أحدهم إيتيان جوفروا سان - هيلير أبن السادسة والعشرين من العمر . وشرف نابليون باختياره لكرسى الرياضيات لدرجة أنه لم يتخلف مطلقا ولو عن إجتماع واحد .

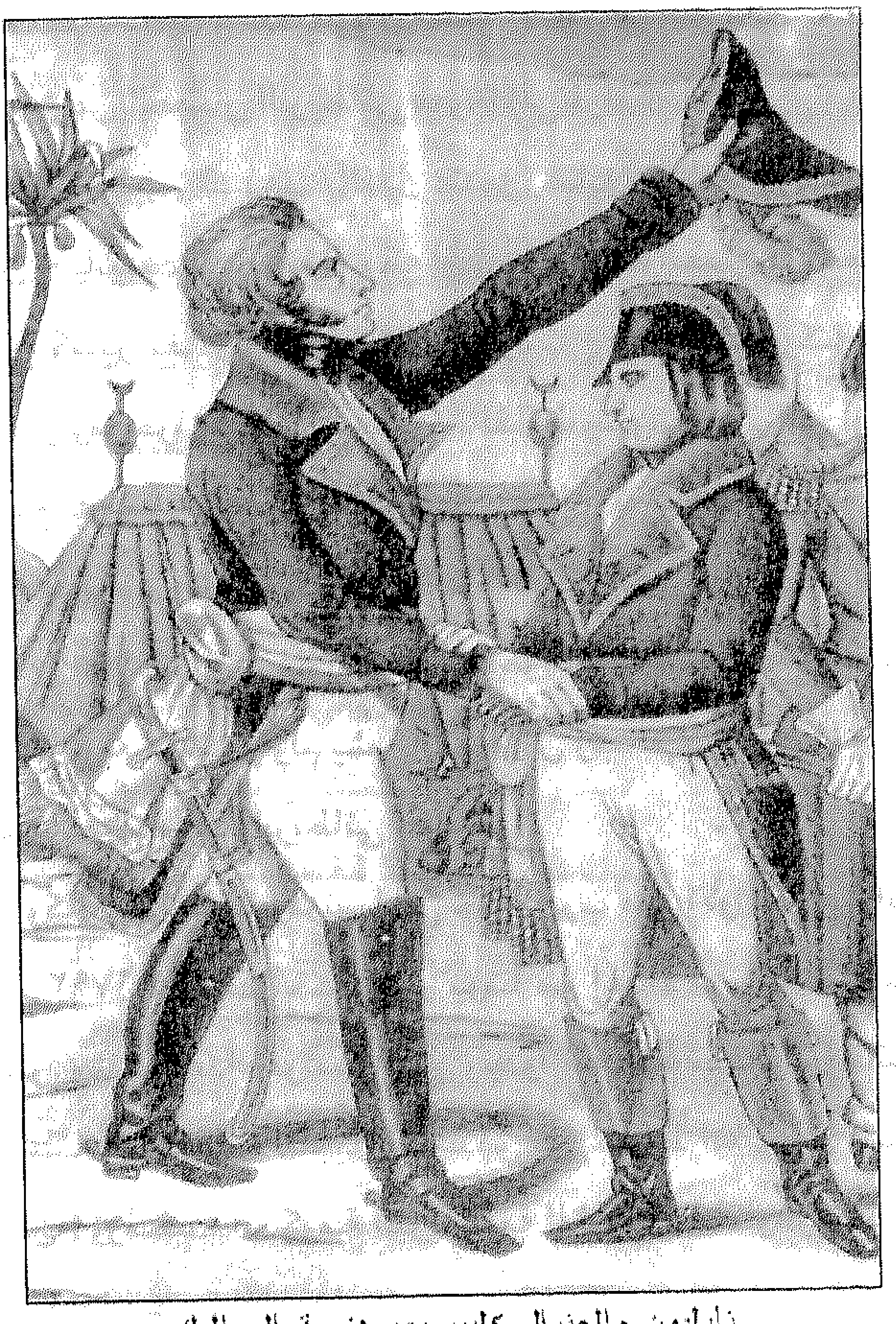
وبعد ثلاثة أشهر من الاحتلال نشبت ثورة القاهرة التى قمعها نابليون بإخماد أى تمرد مسلح . ثم وفى الشام ولعجزه اللوجستى عن احتجاز كل الأسرى الذين استسلموا بعد انتصاره فى يافا أبقى نابليون وضباطه على ٣٠٠ فقط وأصدر أوامره بإعدام الباقين وعددهم ٢٤٤١ جنديا تركيا ومدنيا أولا بإطلاق النار عليهم ثم الإجهاز عليهم بالسونكى توفيرا للذخيرة .

وفى أغسطس عام ١٧٩٩ عندما أتم نابليون الثلاثين من عمره أضطرته الفوضى السياسية فى باريس إلى ترك جيشه فى مصر. وترك القاهرة برفقة كبار جنرالاته وحفنة من علمائه فقط كان

معظمهم لا يعرفون حتى اعتلوا ظهر السفن فى الإسكندرية أنهم يهربون من الحصار البريطانى للعودة إلى فرنسا .

كان نابليون قد ذهب بالفعل عندما وصلت رسالته إلى الجنرال جان - باتيست كليبر تبلغه بأنه أوكل إليه قيادة الجيش فى مصر. وهاج كليبر لمغادرة نابليون السرية وصاح قائلا «لقد تركنا هذا العيار ومؤخرا بنادقنا محشوة بالغائط وسوف نعود إلى أوربا ونلطخ به وجهه». وأمر نابليون كليبر بانتظار تعزيزات من فرنسا ، فإذا لم تصل التعزيزات فى غضون تسعة أشهر أو مات ١٥٠٠ جندى من الطاعون فإن كليبر مفوض فى الاستسلام . وانتظر كليبر أربعة أشهر ولم يشأ أن يعرض رجاله لمزيد من المشقة فاستسلم للتحالف البريطانى العثمانى .

وكانت بريطانيا وفرنسا فى حالة حرب منذ الأول من فبراير عام ١٧٩٣ أى بعد أحد عشر يوما من إعدام لويس السادس عشر. وشعر أعداء فرنسا الذين وجدوا أنفسهم حلفاء لبريطانيا والآستانة بالسعادة لتأجيل التصديق على شروط استسلام كليبر للندن . ورفضت الحكومة البريطانية الشروط المتفاوض عليها بإعتبارها شديدة التساهل .



نابليون والجنرال كليبر بعد هزيمة المماليك

ورفض الفرنسيون التزحزح عن مصر واستمروا فى حكمها ثمانية عشر شهرا أخرى إغتيل خلالها كليبر بخنجر رجل مسلم . وكرادع إضافي للعامة أعدم قاتله علانية وفقا للشريعة الإسلامية : أحرقت يد القاتل حتى المرفق ثم خوزق . (ونقل رماد رفاته بعد حرقها إلى المتحف الوطنى للتاريخ الطبيعى بباريس حيث ذكر الطلبة العرب المبعوثون بعد خمسة وعشرين عاما أنهم شاهدوا الرماد معروضا مع المومياوات) .

وفى عام ١٨٠١ استسلم أخيرا أقل من نصف القوة الأصلية التى قادها نابليون ونزلت أرض مصر عام ١٧٩٨ وتبلغ ٣٤ ألف جندى فرنسى لقوة بريطانية تركية عثمانية غازية ضمت فيما بينها محمد على ذلك الضابط الصغير المغمور من المرتزقة الألبان . وكما فى الأساطير وقبل نزوله إلى الشاطىء عند أبى قير جرفته الأمواج العالية إلى الخليج وأنقذه الجنود البريطانيون من الغرق .

كان نابليون قد أبحر أصلا على رأس قوة مشتركة تضم ٥٤ ألف رجل ، ٣٨ ألف جندى و ١٦ ألف بحار و ١٥٤ عالما ومكتبة تضم ٢٨٧ كتابا . وبدأ التحديث الذى قام محمد على لاحقا بالمطبعة التى جلبها نابليون فى حملته على مصر وزودها بالأحرف

العربية والفرنسية . وفى إحدى مأدب نابليون بالقاهرة وجد كل ضيف على وسادته مجموعة تضم «المصحف» وكتاب توماس بين ، «حقوق الإنسان» ، مترجمة إلى لغته . وحتى ذلك الحين كان الإسلام يرفض الكتب المطبوعة بإعتبارها من المدنسات بما يدين العالم العربى إن لم يكن بالتخلف الفكرى فبالقطع بالتخلف التكنولوجى مقارنة بالغرب حيث كان العرب يعتبرون فن الخط «ملك الفنون» . فالخبرة التكنولوجية الغربية تستند إلى الوصول إلى المعلومات . صحيح أن العرب حددوا أسماء النجوم لكن علم أوربا المشترك سرق جوهر أسرارهم . وبحلول العقد الأخير من القرن الثامن عشر حتى وكل أوربا فى حالة حرب كانت كل السفن المبحرة تستخدم التقويم الفلكى الوطنى البريطانى للملاحة . وفيما يولى المسلمون أينما كانوا وجوههم شطر مكة فى كل صلاة كانت السفن والمستكشفون الأوربيون يتحركون وفقا لتوقيت جرينتش .

وثمة صورة رمزية للتنوير الأوربى المستمر جسدتها عادة نابليون فى القراءة وهو يتولى القيادة فى مقدمة جيشه ينتزع صفحات كتابه بعد أن يفرغ منها ويلقى بها على كتفه ليتلقفها ويقرأها الجميع فردا فردا وجنديا جنديا أو تقرأ بصوت عال فى

جماعات ليتردد صداها عبر الصفوف . وإلى جانب جيش الشرق العظيم جلب نابليون معه فيالق علمائه - أى «موسوعته الحية» التى تضم مائة وأربعة وخمسين عالما وخبيرا جندهم نابليون من المجمع العلمى الفرنسى : مهندسون ، علماء رياضيات ، أثريون ، علماء حيوان ، وخبراء تعدين ، وعلماء فيزياء ، وعلماء كيمياء ، وعلماء اقتصاد ، ومستشرقون ، وجغرافيون ، خبراء رسم الخرائط ، علماء فلك ، رسامون ، شعراء ، بل وحتى عالم موسيقى تقطعت بهم السبل جميعا تقريبا مع الجيش الفرنسى فى مصر .

وخلال السنوات الثلاث للحملة الفرنسية فحص العلماء كل شىء فى وعن مصر ، آثارها القديمة وسكناها المعاصر ، وجدوى شق قناة بين البحر الأحمر والبحر المتوسط (وهو المشروع الذى تم التخلى عنه بعد أن أخطأ مهندس فى حساب إرتفاع الأول عن الثانى بثلاثة وثلاثين قدما) ، والفيضان السنوى للنيل ، ومجموعاتها النباتية وحيواناتها وخاصة النمو الغامض لصغار التماسيح ، ودراسة ظاهرة السراب ، والقيمة الطبية للمومياوات (التى كانت تباع بالرطل فى أوربا على مدار قرون كسلعة مربحة مثل البهارات) . وأصبحت تلك الدراسات المجمعة تعرف فيما بعد



العلماء يقيسون أبو الهول (من رسوم فيفان دينون)

«بوصف مصر» هذا العمل الضخم الرائع الذى بلغ درجة من التفصيل أن أول مجلد من مجلداته الاربعة والعشرين لم ينشر فى باريس حتى عام ١٨٠٩ فيما نشر المجلد الاخير عام ١٨٢٨ . وشارك أيضا نحو ثلثمائة فنان وطابع فى هذا العمل الجماعى التنويرى النفيس . وتحدث سان - هيلير فاوفى بقوله عن وصف مصر «لقد جمعنا موادا لأروع وأجمل عمل يمكن أن تضطلع به أمة . فبعد الحزن على مصير العديد من الجنود الشجعان الذين استسلموا فى مصر بعد قيامهم بالكثير من البطولات الجليلة فإن المرء ليلتمس السلوى من وجود مثل العمل الثمين» .

لكن دومينيك - فيفان دينون كان أول من عاد بمصر إلى فرنسا . وقام دينون الفنان والكاتب المسرحى والدبلوماسى والمصور والموثق النابليونى بمرافقة الجيش الفرنسى فى ملاحقته للمماليك على طول النيل حتى النوبة واضعا رسومه ومدونا ملاحظاته التى غالبا ما توقف عن رسمها أو تدوينها تحت وطأة نيران المعارك إلتماسا للنجاة بحياته . وشاء الحظ الذى لازم دينون طيلة حياته أن يعود فى الوقت المناسب تماما ليرافق نابليون فى العودة إلى باريس . واستغرقت رسومات دينون

الضخمة وروايته للحملة التى حظيت بشعبية منقطعة النظير والتى جاء ت عناوين فصولها على شاكلة «الرحيل للمجهول» بداية شاقة لأكثر من عام من العمل البحثى للعلماء ليصبح مؤرخا ومدونا متحمسا للأحداث التاريخية ومسئول الدعاية لهيئة العلماء .

كانت الكارثة الفرنسية فى مصر عسكرية فقط . أما بالنسبة للعلماء الذين واصلوا بحثهم المضنى وجمعهم للمواد العلمية وهم يلازمون الجيش فقد كانت تلك السنوات الثلاث انتصارا وانجازا باهرا للعقل البشرى . وأضحت مغامرة نابليون العسكرية فى مصر التجربة الناصعة ، الشباب الأسطورى ، لجيل من المفكرين الفرنسيين . وسرى «الولع بمصر» الذى عادوا به منها إلى أوربا مسرى الأسطورة ليستحيل إلى فتنة رومانسية للقرن الجديد وألهمت الفتى جان - فرانسوا شامبليون إبن العاشرة الشروع فى دراسة اللغات الشرقية التى استطاع بها فك رموز اللغة الهيروغليفية المنقوشة على حجر رشيد عام ١٨٢٢ . كان نابليون قد توفى قبلها بعام لكن من ظل على قيد الحياة من علمائه احتفلوا بنجاح شامبليون كأعظم نجاح لجنرالهم .

الفصل الثالث

النهضة ، بربرية

بدأ إعجاب محمد على طويل الأمد بفرنسا مع وصوله إلى مصر لقتالهم فى أوائل مارس عام ١٨٠١ . وعندما سمح الإنجليز أخيرا للفرنسيين بالرحيل والإبحار فى نهاية الأمر فى يوليو عام ١٨٠١ جاء فراغ السلطة فى القاهرة ليجد محمد على متربعا على رأس جيشه الخاص . وبعد أربع سنوات دامية لاحقة ومع موت أو القضاء على فلول المماليك وخصومه الآخرين أصبح أمير الحرب السفاح الصغير هذا واليا عثمانيا على مصر .

ورغم تبعيته الأسمية للسلطان فى الآستانة إلا أن محمد على أمتلك مصر بكل معنى الكلمة منذ عام ١٨٠٥ وحتى وفاته عام ١٨٤٩ . ومنذ البداية تفرد محمد على بين الحكام المسلمين في انفتاحه المتحمس على أوربا . لكن وكما نابليون كان لعبقريته وجهان .



محمد علي

وبعد عقد من ترسيخ سلطته فى القاهرة وإعادة السمعة الدولية لميناء الإسكندرية استولى على مكة والمدينة مستعيدا ظاهريا المدينتين المقدستين (للمؤمنين الحقيقيين) . فى الإمبراطورية العثمانية فيما احتفظ لنفسه بالحجاز . وآمتدت سيطرته جنوبا حتى عدن وشمالا حتى الشام وشرقى البحر المتوسط بأسره . ودفعه تقديره للقوة البحرية وهو الأمر غير المعهود فى العالم العربى لبناء أول بحرية إسلامية قوية . ومكنه غزوه للنوبة والسودان أوائل عشرينات القرن التاسع عشر من احتكار تجارة العبيد الأفارقة على مدى الخمسين عاما التالية . وفى ذات الوقت خطب ود أوربا وفرنسا فى لطف وطموح بوجه خاص للحصول على الخبرة الأوربية لتحديث مصر . وتحت حكم محمد على انتقلت مصر من العصر الحجرى إلى عصر التنوير بشخصية منفردة .

كان محمد على قوة متناقض حتى مع نفسه بربرى عصامى ظل أميا حتى منتصف عمره لكنه أوفد أصغر أبنائه السبعة عشر – لم يعترف محمد على سوى ببنوة ثلاثين فقط كأبناء له – للدراسة فى باريس وكتب إليه يقول : سوف تدرك عندما تكبر

وتنضج أننى أنجزت أعمالا عظيمة من لا شيء . أما أنت ياولدى فسوف تتحصل .. فى عاصمة النور .. على الفنون والعلوم حيث ترسخت منابع كل فروعها ، تلك المدينة التى ترعرع فيها العظماء وتواصل تنشئة آخرين على نفس القدر من العظمة» .

ودأب محمد على ، على توبيخ مرؤوسيه وهو يميزهم بوصفهم (حمار) تركى (وخنزير إبن خنزير) مصرى وضيع . مهددا إياهم دائما بقطع رؤوسهم أو خوزقتهم أو جلدهم بالسياط أو دفنهم أحياء أو إغراقهم فى النيل أو نتف لحاهم شعرة شعرة - لكن الأجانب أجمعوا على لطفه الجم . ورغم تفضيله للفرنسيين إلا أن زواره الأجانب من أى جنسية كانوا موضع ترحاب فى مجلسه . وربما لم يكن تاريخ مصر يعنيه فى شيء لكنه استغل بقوة ولع أوربا بتاريخ مصر العريق لتحديث مستقبلها . وتملق مهندس أمريكى جاء إلى مصر لدراسة الأهرامات . للبقاء فيها وبناء السدود والجسور . وكلف چيولوچى إيطالى بالتنقيب عن ملح البارود وصناعة البارود . وأرسل مقاول إنجليزى كان يبحث عن الآثار إلى الصعيد لبناء مصنع لتكرير السكر وتشغيل معمل تقطير للخمور .

بيد أن أعظم كل تدابير محمد على فى الموارد القومية ربما تمثل فى إدخار جاذبية مصر فى الوقت المناسب للفرنسيين . فالبعض مثل «بيرنار دينو دروفيتى» تنقل بين المهن الحرة . وبعد هزيمة نابليون أخيرا فى معركة ووترلو عام ١٨١٥ وحل جيشه عاد الكثير من رجاله إلى مصر ليشغلوا الوظائف التى وفرها لهم محمد على لتدريب جيشه وبحريته وتنظيم جهازه الإدارى .

ومن قبيل المفارقات أن يرى المرء هؤلاء الرجال وهم يضعون أنفسهم قيد تصرف حاكم مستبد مسلم مع أنهم نتاج التنوير الأوربى فى القرن الثامن عشر - تلك الحركة الإنسانية الإجتماعية والعلمية التى ستفضى عبر مائتى عام من الثورات الديمقراطية إلى إقامة الولايات المتحدة وسقوط الملكية فى روسيا وفرنسا - حتى وإن كانوا حثالة هذا التنوير .

ومن بين علماء المصريات فى القرن التاسع عشر فريدريك كايو - إبن الساعاتى - الذى قام بأولى بعثاته على النيل عام ١٨١٦ ولم يكن معه أحد سوى «بيرنار دينو دروفيتى» . كان الشك يساور دروفيتى تجاه الشاب الفرنسى ومن ثم فقد عزف عن تشجيع منافس محتمل فى سرقة المقابر . لكن حماس «فريدريك كايو»

الموسوعى أكسبه رضاه ولدى عودتهما إلى القاهرة قدمه القنصل لوالى مصر . وفى غضون لحظات من تقديمه وبعد أن أطلع على مواهب فريدريك كايو فى تصميم الجواهر والمشغولات الذهبية التى أكتسبها من والده قرر محمد على تعيينه مسئولا عن مناجمه وأرسله للتنقيب عن الذهب والأحجار الكريمة والمعادن النفيسة فى البحر الأحمر . كان الأغريق القدماء قد كتبوا عن مناجم الزمرد في مصر لكنها فقدت لألفى عام قبل أن يعيد كايو أكتشافها . وعاد الباحث المغامر إلى القاهرة حاملا دفعة أولية تزن عشرة أرطال من الزمرد لمحمد على الذى لم يكن لديه أدنى فكرة عن تلك الأحجار الخام حتى تم الشرح له أنها تحتاج إلى تقطيع وصقل لتتحول إلى جواهر .

ولاحقا وبعد أن حظى بتقدير بالغ من الوالى جاب الباحث المغامر كل أرجاء مصر بتصريح رسمي على مدى الأعوام الستة التالية .

ووفقا للتقليد التنويرى لنابليون المتمثل فى فيالق العلماء قبل عقدين شارك كايو فى الغزو المصرى الأولى للنوبة والسودان عام ١٨٢١ . واستغرق الأمر من الجيش الضخم ثلاثة أيام لعبور النيل

الأبيض جنوب جزيرة توتى وغرق ثلاثون رجلا ومائة وخمسون جملا . وكلف كايو بالبحث عن الذهب واستكشف أربعمائة ميل من النيل الأزرق وكان إبحاره هو الأول من نوعه منذ أن أبحر فيه قدماء المصريين جنوبا سعيا وراء العبيد .

وشاهد فريدريك كايو عن «يمين ويسار» النيل الأزرق بالقرب من سنار الزراف والضباع والقرود والأفيال التى كانت قطعانها تجوب البلاد حتى مصر فى ذلك الحين . ووصف كايو ، الرشاقة والإضطراب الذى أثارته فرسان البحر ، التى كانت تسبح حول قاربه . ومع هذا فإن الأعوام الثلاثة التالية لغزو محمد على ستخرج الحيوانات البرية من المنطقة لدرجة أنه فى عام ١٨٢٤ ولدت الزرافة على بعد مائتى ميل إلى الجنوب الشرقى .

وفى مرحلة ما من الرحلة وفيما هو بالقارب ذكر كايو أنه تناهى إلى سمعه عبر النهر صوت جلبة غير عادية - كانت تتصاعد - كلما إزداد الاقتراب منها ، وتبين أن مصدرها هو فقس بيض التماسيح . وفى الوقت الذى تملك الذعر مرافقيه خشية التماسيح الكبيرة التي ذاع صيتها بأنها مولعة بإفتراس الشباب نزل كايو إلى الشاطئ وأنكب على المساعدة فى إتمام

عملية الفقس وخروج التماسيح الوليدة من البيض وقام بدراستها وقاس وسجل فى تفصيل مسهب كيفية خروجها من بيضها بطول قدم بما يزيد مرتين عن طول بيضتها وهى تفح نحوه . وفى بادرة تنم عن مزيد من الفضول والغرور والإدعاء عاد بأحد التماسيح الوليدة إلى القارب محاولا رفعه دون جدوى .

وفى سفوح أثيوبيا ينحنى النيل الأزرق عبر مضيق غير صالح للملاحة لأربعمائة ميل وصف كايو تقدم الجيش بصعوبة بالغة خلاله فى رسالة بعث بها إلى دروفيتى بالإسكندرية قائلا : «كنت الرحالة الوحيد الذى تجاوز مملكة سنار ليصل إلى خط عرض ١٠ .. لبلد جبلى تغطيه الأشجار الكثيفة ، بعد سيل عرم إضطررنا معه للعبور من ثمانى إلى عشر مرات فى اليوم بدون طريق محدد يتملكنا الرعب من الحيوانات البرية والأعداء المحيطين بنا .. الذين لا يدعون لنا وقتا للراحة فهم يهاجمون فى أى لحظة على مدى اليوم» .

ومع الأوغاد المعروفين أمثال دروفيتى والمفكرين الجسورين أمثال فريدريك كايو أصبحت مصر محمد على قبلة أوغاد ورعاع

أوربا . ولعل أكثر هؤلاء المارقين حيوية وموهبة هو «الكولونيل سيف» .

وفى عام ١٧٩٨ وبينما هو فى سن العاشرة كان «أوكتاف جوزيف أنتلم سيف» من الجموح لدرجة أن والديه اكتشفا أنه يعمل صبى كبائن بالبحرية الفرنسية . وفى السابعة عشرة من عمره أصيب بجرح من فأس فى معركة بالأيدى مع البريطانيين في الطرف الأغر . وبعد عامين ومن جراء «تصرف غير منضبط بالغ الخطورة» فصل سيف من البحرية وإلتحق بالجيش حيث نال رتبة عريف فى الشهر الأول لخدمته . وخلال غزو نابليون الثاني للنمسا عام ١٨٠٩ وقع سيف فى الأسر وأمضى عامين أسيرا فى المجر . وعاد إلى جيش فرنسا العظيم ليخدم بتميز وتفان فى كل الحروب النابليونية وحصل على ترقياته بصفة دورية وجرح من الإصابة بنيران البنادق وطعنات السيوف والرماح . وفى عام ١٨١٤ كان سيف ملازما بسلاح الفرنسان وفيه حصل على صليب وسام جوقة الشرف الفرنسية .

وبعد أن ضمن النصر الذى قادته بريطانيا فى ووترلو استعادة الملكية فى فرنسا صدر عفو عام عن جيش نابليون وأعفى سيف



أوكتاف سيف

وهو برتبة كابتن . وتواتر أنه شارك فى مؤامرة لإطلاق سراح أعظم جنرالات نابليون الجنرال ميشيل ناى من سجنه . وفشلت المؤامرة وفر سيف إلى مصر وبحلول عام ١٨١٩ رقى نفسه لرتبة كولونيل واستأجره محمد على للبحث عن الفحم فى الجبال الواقعة بين جنوب مصر والبحر الأحمر . ولدى عودته إلى القاهرة من دون إحراز النجاح وجد المدينة تحتفل بفتح محمد على لمكة المكرمة والمدينة المنورة . وحيث أن الوالى كان يضع النوبة والسودان نصب عينيه فقد أرسل سيف إلى آسوان لتنظيم وتدريب جيش جديد وفقا للمدرسة الفرنسية .

وفى البداية احتقر المجندون المسلمون سيف بإعتباره أجنبيا كافرا . ووصف تيودور ديليسبس الذى سيقوم أخاه الأصغر فيرديناند ديليسبس بعد خمسين عاما بشق قناة السويس كيف كان المتدربون يستهدفون سيف أثناء التدريبات الميدانية على ضرب النار بقوله : «كان سيف يصدر الأمر مرارا (أضرب) فيجد الرصاص يدوى منهمرا حوله». ووصل بهم الحد إلى الدرجة التى أطلقوا فيها النار على حصانه وهو يمتطيه . ومع ذلك فقد كتبت

النجاة لسيف ووطد أقدامه وكان المتدربون الذين أشرف على تدريبهم هم الذين غزوا أعالى النيل وتولوا حراسة الصيادين الذين أوقعوا بالزرافة . وهكذا أصبح عشرات الآلاف الذين أسروا عبيدا من السودان بدورهم الجيش الذى دربه سيف ورجاله ليتمكنوا من هزيمة اليونانيين ربيع وصيف عام ١٨٢٧ فيما كانت الزرافة تقطع المسافة من مرسيليا إلى باريس .

وتلقى المستكشفون والمقاولون بل وحتى المبشرون المسيحيون المساعدة فيما استعان محمد على بعقولهم وفتح مصر على العالم . وبالاضافة إلى ابنه أوفد الوالى آلاف الطلاب إلى أوربا وهم يشكلون كوادر المفكرين والمتخصصين العرب لتعليم الأساليب الغربية.

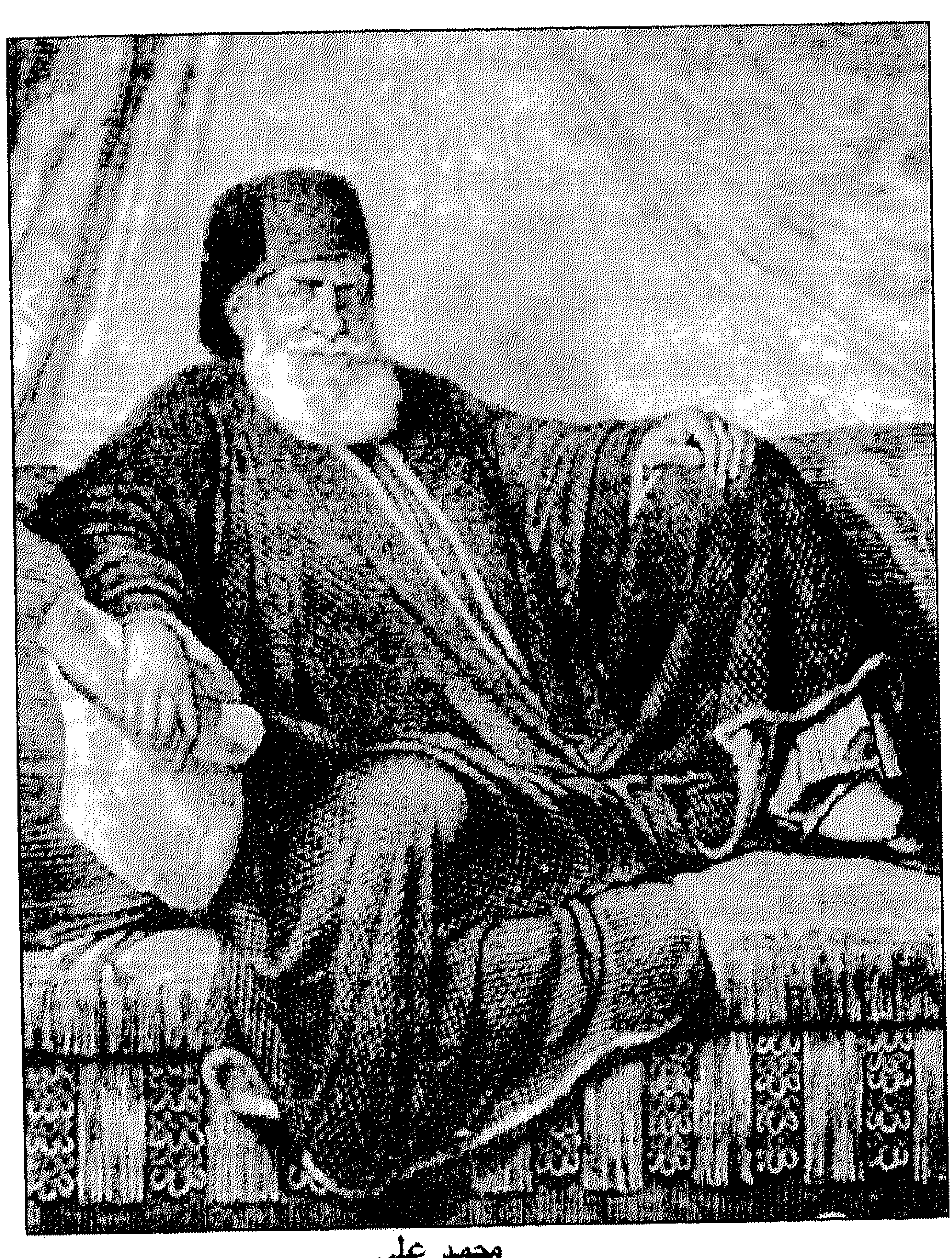
وتماما كما ساهم الصليبيون العائدون من الأراضى المقدسة فى انفتاح العقل الأوروبى قبل قرون نهل أولئك المسلمون التفاصيل والملكات الكونية والنتاج الفلسفى للتنوير وعادوا به إلى الوطن لتتداوله دوائر الجدل والبحث الإسلامى.

وإضافة إلى ضباطه ومستشاريه العسكريين الفرنسيين استعان محمد على بالمدرسين والعلماء والمدراء والخبراء الغربيين فى كل المجالات لإقامة البنية الإدارية والاقتصادية التى أقام عليها القوة العسكرية التى تستند عليها الدولة الحديثة.

وكانت تعليمات رجال المال والمصارف لديه تصدر بالإيطالية لغة المال والتجارة العالمية فى ذلك الحين. أما شئون الدبلوماسية فقد كانت تجرى بالفرنسية.

وأحاطت بمحمد على الذى لم يكن هو نفسه يتحدث سوى الألبانية واليونانية والتركية فرق من الكتبة كانت تتولى ترجمة تعلمياته إلى اللغة العربية. أما كبير مترجميه مع الأوربيين وسائر الآخرين فقد كان خادمه وصفى عمره الأرمنى يوسف بوغوص، الذى كان الشخصية الثانية المهمة فى مصر قبل أن يعينه الوالى وزيرا للشئون الخارجية. وكان بوغوص هو الشخص الوحيد المقرب من الوالى الذى نجا من تحوله إلى شخصية عالمية والفضل يعود إلى ولائه وخضوعه المطلق رغم قوته.

وفى تكليفه لأحد المرتزقة الفرنسيين بالسفر إلى مرسيليا للإشراف على بناء سفينتين حربيتين كتب بوغوص فى تعليماته



محمد على

إليه يقول: عليك «وأنت» في أوروبا جمع كل المعلومات التي يمكنك جمعها حول كيفية تسيير الأمور، والاختراعات الجديدة التي «ترى» أنه يمكن نقلها وأن تفيد مصر في الصناعة والتجارة والتصنيع وفي العلوم والفنون، وأخيراً «عليك» بالتحمس لنوايا عظمته.. في تحديث وتحضر البلد الجميل الذي يحكمه.

ومول محمد علي تحديث وتحضر بلده الجميل من الضرائب المجحفة والاتجار الشره في العبيد بالجملة. وزاد جيشه الضخم من العبيد السودانيين بالاستمرار في تجنيد المصريين. وتملك الذعر مرتزقة الوالي الأوروبيين من البؤس المستشري في معسكرات التدريب حيث المجندون الذين، يفتقرون حتى الملابس، التي تستر أجسادهم كانوا يموتون بمعدل إثنتي عشر إلى ثمانية عشر شخصاً في اليوم الواحد، وللهروب من قسر محمد علي شاعت ممارسة بتر إصبع السبابة لدرجة تحولها عادة إلى حرفة للعجائز. «وفي الفلوكة التي أقلت الروائي الفرنسي جوستاف فلوبير بالنيل عام ١٩٥٠ كان أحد عشر من أفراد الطاقم الأربعة عشر مبتوري السبابة».

وجريا على تناقضاته كان محمد على يرسل أحد أبنائه لغزو السودان ثم يشبعه توبيخا للضرائب الباهظة التى يفرضها على القبائل قائلا له" إن مهمتك هى كسب «ثقتهم».. بالرأفة والمعاملة العادلة.. وليست التفريق بينهم.. فلسنا هناك فى سبيل المال بل من أجل العبيد.

وقبل أن يكمل محمد على غزوه لأعالى النيل عام ١٨٢٣ كان نحو خمسة آلاف إنسان أسير ينقلون سنويا فى شندى عبر النيل أو إلى ميناء سواكن على البحر الأحمر.

وبينما أودت المذبحة الطويلة للغزو بحياة خمسين ألف سودانى فقد تحول الناجون الثلاثون ألفا إلى عبيد .

وعاش ما يقدم بنصفهم فقط ليصل إلى القاهرة ليموت معظمهم من سوء التغذية وعدم التعود على البرد ونقصان المناعة ضد أمراض المدنية.

وهلكت قبائل بأسرها بحيث فرغت القرى من سكانها الأصحاء ولم يتبق فيها سوى صغار أو كبار السن أو الذين لا يمكن أن يستفاد منهم بدنيا.

ومثل عدم مبالاته بالذين استعبدهم لم يول هذا الألبانى الدخيل الذى لم يكن يعرف حتى تاريخ ميلاده اهتماما يذكر بالآثار المصرية التى أهملها وتجاهلها باعتبارها، أطلالا قديمة، وشاركه معظم المصريين هذا الاعتقاد. وانطلق لصوص المقابر يعيثون نهبا فى العصور الفرعونية وفقد أبو الهول أنفه بعد أن اتخذه المماليك هدفا فى التدريب على ضرب النار. وسكن الفلاحون ومواشيهم المعابد والمقابر القديمة وشبوا فوق أنقاض أجدادهم. وتحولت الآثار إلى محاجر تقتلع أحجارها الثمينة. وتناثرت المومياوات على الأرض بكثرة لدرجة أن العظام البشرية كانت تقع بسهولة فى اليد كما لو كانت عصاة أو حجرا عند الاحتياج لآداة بدائية.

لم يكن فك رموز اللغة الهيروغليفية يعنى محمد على فى شئ. ولم يكن علم المصريات بالنسبة له سوى مجرد أداة قيمة من أدوات العلاقات العامة مع أوروبا. ثم وفى عام ١٨٢٨ أى بعد عام من المشاعر الفياضة التى جاشت مع وصول الزرافة إلى فرنسا أوفد شارل العاشر شامبليون فى بعثته الخطيرة إلىَ مصر، وتملك الأسى شامبليون لما حاق بالمواقع الأثرية القديمة من دمار وتخريب

متعمد وذهب ليكتب إلى الوالى، كانت تلك الرسالة ثانى أعظم انجاز لعلم المصريات حيث برر ترميم الآثار بايعازه للمرتزق القديم بأن السياح سيحولون مصر إلى بلد غنى، وأقنعت حجة شامبليون إلى جانب الثروة الهائلة التى كونها دروفيتى وجامعو الآثار الآخرين محمد على عام ١٨٣٥ بإصدار أول قانون للسيطرة على عمليات التنقيب والاتجار فى الآثار المصرية وتصديرها.

الفصل الرابع

ســــرقة مصــــر

تمتد بحيرة ناصر التى تكونت بعد بناء السد العالى حاليا جنوبا بطول نحو خمسمائة ميل إلى داخل الأراضى السودانية. ويقبع فى قاعها الآن المواقع الأصلية للآثار القديمة التى فككت وقطعت أحجارها وأعيد تجميعها فى مناطق مرتفعة عن منسوب النيل فى سبعينات القرن العشرين. وأخليت خمس وأربعون قرية بالنيل من سكانها وانطمرت فى قاع البحيرة مع الشلال الثانى الذى دخلت منه الزرافة إلى مصر.

وتسببت بحيرة ناصر فى ارتفاع منسوب خزان المياه الجوفية فى الصحراء مما جلب الحياة إلى مناطق نائية قفر مهملة تمتد حتى الجزائر.. ومع ذلك كانت تلك الحقيقة شئوما على مصر الفرعونية على النيل. حيث أدى ارتفاع منسوب المياه الجوفية إلى ظهور الأملاح وتمكنها من أحجار الآثار التى صمدت لآلاف

السنين، وتسببت الأملاح فى ظهور الحبيبات باللوحات الجدارية والنقوش وتفجرها إلى رقائق تذورها الرياح وتحولها إلى غبار. وتشير تقديرات علماء المصريات إلى أنه فى غضون المائتى عام القادمة - أى نفس الفترة الزمنية التى بدأ معها علم المصريات مع حملة نابليون عام ١٧٩٨ - ستفنى كل الآثار المصرية القديمة غير المحفوظة فى المتاحف.

وأقيمت أولى متاحف الآثار المصرية فى أوروبا فى غمرة الاستثارة التى تلت فك رموز اللغة الهيروغليفية. وفجأة وجد بيرنار دينو دروفيتى الذى قام بتهريب الآثار لأكثر من عشرين عاما غنيمة سرقته للمقابر تكرم وتتحول إلى مجموعات أثرية رسمية تحظى بالتكريم. وأصبح ثريا ينعم بالتوقير والامتنان الذى يحظى به العلماء والملوك، لكن لم يدر بخلده على الإطلاق أنه ينهب خزانة مصر القديمة لأجيال.

ولد دروفيتى فى بيمونتى قرب تورينو بإيطاليا. وفى سن العشرين خدم فى الميليشيا المحلية التى تشكلت كجزء من حملة نابليون التى استمرت خمسة وعشرين عاما «لتحرير» شمال إيطاليا من الإمبراطورية النمساوية التى يحكمها آل هبسبورج.



بيرناردينو دروفيتي

ولم يقتل الجرح الذى أصيب به فى الحرب وخلف أعاقة بيده اليمنى روح المغامرة لديه وفى عام ١٨٠٢ وصل إلى الأسكندرية نائباً لقنصل فرنسا - موظفا بيروقراطيا تجاريا فى أرض أجنبية استأجره ضابط سابق بالجيش قاتل تحت قيادته - حيث بقى لخدمة البلد الذى تبناه وخدم نفسه بشرف علنى عظيم ومنفعة خاصة منقطعة النظير. وفى عام ١٨٠٦ أى بعد عام من تولى محمد على ولاية مصر ترقى ليصبح قنصلا عاما لفرنسا «خلفا لرفيق طفولته هاتيو ديليسبس الذى سيتولى أبنه فيرديناند نفس المنصب قبل شق قناة السويس»..

ورغم انقطاع فترة عمله رسميا عام ١٨١٤ عندما أدى تنازل نابليون عن السلطة إلى استعادة الملكية فى فرنسا ظل دورفيتى فى الاسكندرية موطدا أقدامه فى دوائر الأعمال العالمية «وسرقة المقابر» كحليف وثيق الصلة ومستشار خاص لمحمد على.

وأعيد تعيينه عام ١٨٢١ قنصلا عاما وشغل المنصب حتى عام ١٨٢٩ حاملاً اللقب العظيم، قنصل عام جلالته المسيحى المخلص فى وادى النيل.



دروفيتي مع العاملين معه

كان الماضى سلعة ذهبية لدروفيتى حفر عنها واستخرجها من باطن الأرض وباعها للرحالة وجامعى التحف الأثرياء الأغنياء فى مختلف أنحاء أوروبا . ومكنه وضعه الدبلوماسى الرسمى من الجمع بين عمله وتجارة الآثار وبفضله لم يكن هناك إقبال أو حاجة لدولاب التحف بدون مومياء فيه.

كان دولارب التحف ظاهرة تنويرية هواية أو موضة كانت نخبة الأثرياء والمتعلمون أو كلاهما فى أوروبا وأمريكا يحتفظون فيه بما يستهويهم. وكانت الأرستقراطية الأوروبية أيضاً تجمع مجموعات الحيوانات المتوحشة الغريبة. كما احتفظ الأطباء والبيطريون بالأجنة المشوهة والكائنات البيولوجية الغريبة الأخرى. كانت دواليب التحف الشخصية والمهنية وحدائق الحيوانات الخاصة هواية جادة وكان أصحابها يمتعون بها زائريهم ويروحون بها عنهم، فهذا الولع بإقتناء تلك المجموعات حتى وإن كان حماقة غريبة وادعاء واضحاً فقد كان أبلغ تعبير عن عصر تبدو فيه الحقيقة وهى الديمقراطية النهائية والمطلقة متاحة لأى هاو مجتهد وكان العلم بسيطا مثل الاحتفاظ بنموذج فى الفورمالديهايد (*) أو إطلاق طائرة ورقية فى غمرة عاصفة رعدية.

(*) الفورمالديهايد حمض مطهر ومانع للعفونة (المترجم) .

وبرهنت دولايب التحف أن غاية تنوير العقل تستطيع فحص أى شئ كعلم. وما من شئ يصغر على البحث فأصغر شئ يمثل لغزا محتملا، جزء محير من العالم الأوسع. وتحولت بعض تلك المجموعات الشخصية إلى متل حرجة كبيرة - مثل كرة تكبر لتدخل موسوعة جينز للأرقام القياسية - لتصبح متاحف رسمية.

وبهذه المجموعات الأثرية وتلك الخاصة بالوحوش تطورت تجارة دولية مربحة بطريقة بالغة الغرابة تصدرها دروفيتى فى أفريقيا. وكان الأب الروحى للمصريات فى أوائل عهدها.

وباعتباره أقدم وأطول الأوروبيين خدمة فى مصر محمد على أقام دروفيتى شبكة تمتد من الوالى نفسه حتى عمد القرى النائية فى بر مصر وكون عصابات عمل إلى جانب مجموعات أخرى من العملاء والعاملين الذين جعلوا من سرقة المقابر أمرا بالغ الخطورة على منافسيه.

ومثل مجمد على كان دروفيتى شخصية كاريزمية بالغة السحر - قرصان مثقف نادراً ما كان يقدم على السفر لإصابته المزمنة بدوار البحر، وحظيت شخصيته تلك بإعجاب الزملاء والعملاء فى مختلف أنحاء العالم. وكان فريدريك كايو وسيف أكثر المشهورين

من الأجانب الذى يدينون بالفضل لمهنتهم فى مصر لدروفيتى مثلما لم يكتب النجاح لكثيرين فيها بدون مساعدته وخلال السنوات السبع والعشرين التى أمضاها دروفيتى فى الأسكندرية طالما أخذ الرحالة بسخاء هذا الفرنسى الشرقى الذى تألقت عبقريته فى طرح نفسه شخصياً جليل القيمة. وأثر فيهم إيما تأثير - كما كتب شاتو بريان - مشهد محاولته الكتابة بيده العاجزة، التى أصيب بإعاقة فيها بسبب خدمة بلده!.

وفى عام ١٨٠٦ بعد تعيين دروفيتى قنصلا عاما كان الكاتب المرموق يبحر عائدا إلى وطنه فرنسا قادما من بيت المقدس حيث كانت صديقته الجديدة قد طلبت منه الحج إلى القدس مقابل ما أسدته له من معروف لكن رياحا معاكسة تسببت فى احتجاز سفينته فى الأسكندرية لعشرة أيام، ووجد الميناء القديم، أكثر أماكن العالم الموحشة المخربة التى تبعث على الحزن، راسما بإمتنان صورة لحياة دروفيتى بالأسكندرية، أقام المونسنيور دروفيتى عششا للطيور فوق سطح منزله حيث كان يربى السمان والحجل وأنواع مختلفة من طيور الصيد. وكم أمضينا الساعات نتمشى بينها ونحن نتحدث عن فرنسا.

وخلال فترة الانقطاع عن الخدمة لسبع سنوات والتى أمضاها مواطنا عاديا ظل دروفيتى مدخل أوربا لمصر.

كان مدير جمارك مرسيليا المحارب القديم فى حملة نابليون خير شاهد على عملاء دورفيتى بقوله.. «أبلغنى المونسنيور كايو أنه بوسع المرء أن يقتنى بسهولة مجموعات من مومياوات الحيوانات فى صعيد مصر وسأكون فى غاية السعادة لو أقتنيت مجموعة منها، فليس لدى سوى مومياء محنطة واحدة لامرأة وسحلية»، وسرعان ما كان يوجه الشكر لدروفيتى على تلقيه ثورا محنطا ومجموعة آشياء أخرى كل منها أثمن من الأخرى.. مثل قرد محنط وعدد من الحيات وكسرة خبز قديمة.

وفيما كان يورد المومياوات والأشياء الثمينة الأخرى استطاع دروفيتى تكوين وجمع مجموعاته الثلاث الشهيرة يكدسها ويبيعها الواحدة تلو الأخرى بدءا من عام ١٨٢٤. وعمل أيضاً فى تهريب الحيوانات الأفريقية. ومن الطلبيات التى أمر بها: زوج من الغزلان لشقيقة نابليون الأميرة كارولين أميرة نابولى على أن يسلما، وفى الربيع.. مع المطلوب للأمبراطورة «جوزفين» إن لم يتدخل سوء الحظ.. ذكر وأنثى، ريش نعام لسفير فرنسا فى الآستانة – فالمدام

سعيدة بها- وحصان رائع من دنقلة وبن ممتاز ونبيذ معتق ولأمير إيطالى فى تورينو إضافة إلى بقرة من بقر المارية الأفريقى الوحشى «وصلت ميتة» وتم التبرع بها لمتحف محلى للتاريخ الطبيعى كأول عينة من نوعها.

وأرسل دورفيتى جيادا عربية إلى فيينا وشياها نوبية إلى موسكو وأصدافا وأحافير من الصحراء الليبية إلى باريس، وكتب ملك السافوى لدروفيتى حول الحصول على فيل، وكتب إليه عالم نبات إيطالى يقول: إذا تصادف وقدم أى عالم نبات نفسه إليكم وكان بوسعه تقديم هدية من بعض النباتات المصرية التى جمعها من هذا البلد الغنى بنموه الخضرى، فأرجو ألا تنسانى واستفسرت منه الجمعية الأمبراطورية الروسية للأحياء الطبيعية.. ألن يكون لديكم بعض علماء الحشرات الرحالة الذين يقبلون ببيع الحشرات؟.

وفى عام ١٨٢٢ أى قبل خمسة أعوام من وصول الزرافة إلى باريس أصبح الولع بمصر فجاة هو علم المصريات عندما فك جان - فرانسوا شامبليون رموز اللغة الهيروغليفية المكتوبة على حجر رشيد الذى سمى بهذا الاسم نسبة إلى بلده رشيد على مصب

النيل حيث أكتشفته قوات نابليون وسلم حجر رشيد إلى البريطانيين عام ١٨٠١ ودرس شامبليون نسخا منه صنعت من قوالب الشمع أعيدت إلى فرنسا، وخلال دراسته بالمدرسة كان مفتونا بدينون وبالمقتنيات الفنية المصرية التى شاهدها فى دواليب تحف راعيه جوزيف فوربيه السياسى الفيزيائى الذى كان أحد أفراد فيالق علماء نابليون.

وحول اكتشاف شامبليون عملية التنقيب عن الآثار المصرية إلى علم جاد وعمل عظيم. وبترجمته الأولى – لخرطوش رمسيس الثانى– أعاد شامبليون كتابة شعر شيلى الشهيرالذى تصادف وكان حول نفس الفرعون أوزمندياس من «أيها العظيم أنظر إلى أعمالى ويأسى» إلى «أيها العظيم أنظر إلى أعمالى وأشترى !».

وتشير الروايات إلى أن شامبليون بلغ مع هذه الترجمة التى تمثل الثورة الأولى فى ترجمة الهيروغليفية حدا من الإثارة دفعه إلى الجرى فى شوارع باريس ليبلغ أخيه « لقد فعلتها » ثم سقط مغشيا عليه. ولو صحت لكانت تلك الواقعة إيذانا بالسكتة الدماغية التى لم يكتب له النجاة منها بعد عشرة أعوام فقط.

لكن مؤامرات التنافس أجلت نشر كامل اكتشافات شامبليون حتى عام ١٨٢٤، وقبل ذلك بعام كان دروفيتى قد عرض بيع

مجموعته الأولى - التي تعد أول أطلالة ممعنة للعالم على مصر القديمة - على ملك فرنسا لويس الثامن عشر. لكن الملك رفض الصفقة بناء على نصيحة رجال الدين بدعوى أن تلك المقتنيات الفنية تدنس التاريخ التوراتي للإنسان وهكذا بيعت المجموعة مقابل أربعمائة ألف ليرة لملك سردينيا ليقيم أول متحف للمصريات في تورينو. ورغم حصوله على ثروة هائلة إلا أن خيبة الأمل أصابته مع علماء المصريات الفرنسيين لعدم حصول البلد التي تبنته «فرنسا» على تلك الآثار عظيمة القيمة. وبعد وفاة لويس الثامن عشر في سبتمبر عام ١٨٢٤ نال دروفيتي مزيد من الكدر عندما نما إلى علمه أنه من المقرر بيع مجموعة مصريات أخرى جمعها نظيره هنرى صولت القنصل والموثق البريطاني في مصر للملك الفرنسي الجديد شارل العاشر المولع بكل ما هو إنجليزى وشكلت مجموعة صولت أساس المتحف المصرى في اللوفر وصدر مرسوم ملكي في الثلاثين من مايو ١٨٢٦ بتعيين شامبليون أمينا للمتحف بينما كانت الزرافة في منتصف الطريق عبر النيل. وفي خريف ذلك العام كتب الأخ الأكبر لشامبليون لدروفيتي، يبلغه بأعظم جاذبية للمصريات منذ اكتشاف أخى وهى قيام الحكومات

بتأسيس المتاحف واستحداث كراس دراسية للآثار المصرية.. فى باريس وروما وبولونيا وبيزا.. ومع هذا فثمة أمر لا ينازع.. هو أن باريس هى المركز الحقيقى للآثار المصرية. لكن هناك شيئاً واحدا يبعث على الأسف يتمثل فى أن مجموعتكم الجميلة لا تشكل «عماد متحفنا».

وكان شامبليون خير تجسيد للتنوير حيث عكف على تدريب عقله على فك رموز الهيروغليفية منذ شبابه وأنجزه رغم أن قدمه لم تطأ أرض مصر من قبل وبقدر ما أصبح يحوز من شهرة على الفور فقد عول شامبليون على نصيحة دروفيتى لبعثته الملكية المرتقبة منذ أمد طويل إلى مصر وإليه كتب: «سيدى إننى استشيرك وحدك فى الفرص المتاحة أمام الرحلة وعن موعد القيام بها. فأنت وحدك خير من يعرف تلك البلاد والتسهيلات والعقبات الموجودة.. إنى أنتظر كلمة واحدة منك لأشرع فى المهمة»، وخلال بعثته على النيل وعندما أصبح شامبليون وبعد آلاف السنين الأول والوحيد القادر على قراءة قصة مصر القديمة كانت رسائله إلى الاسكندرية خير مثال على المودة التى يشيعها دروفيتى بشكل عام، وجاء فيها، أرجوك أن تبلغ المونسنيور دروفيتى.. أننا شربنا على نخبه أمام الأطلال زجاجتين من نبيذه الفاخر.

الفصل الخامس

هـــدية ملكيـــة

اندثرت الحضارة الأغريقية بالفعل بعد سقوط الأمبراطورية الرومانية وماتلاها من غزوات بربرية. وعندما غزا الأتراك العثمانيون المنطقة فى القرن الخامس عشر لم يتبق سوى القليل من اليونان باستثناء لغتها وآثارها وبزخم من تنوير القرن الثامن عشر وبالثورة التى استلهموها من أمريكا وفرنسا ألهم الكتاب اليونانيون لا الجماهير بلدهم للعودة إلى الحياة. وتفجرت قوميتهم الأدبية الجديدة للتحول إلى حرب الاستقلال اليونانية عام ١٨٢١.

وفى سنوات الحرب الأولى إلتمس السلطان العثمانى مساعدة عسكرية محدودة من محمد على خشية انتقال الجيش المصرى الضخم المؤلف من السودانيين بالقرب من الآستانة.

ولاقى هذا هوى فى نفس الوالى محمد على حيث كان من الواضح أنه لايمكن أن ينتصر السلطان فى الحرب بدونه. وكلما

طال انتظار السلطان كلما ضعفت قدرته على التعامل مع خطط محمد على بالاستقلال فى نهاية المطاف.

وعندما صدرت الأوامر للمصريين بدخول اليونان بالقوة عام ١٨٢٤ اشتكى قائد قوات السلطان من أن قوات محمد على الوافدة وقوامها ثلاثون ألف جندى تتجاوز حاجة الصراع بكثير. كان نجل محمد على يقود قوات أبيه الوالى بينما سيف رئيسا لأركانه. وشرعت القوات المصرية فى العمليات فى شهر مارس١٨٢٥ وأنزلت الهزيمة على الفور بالقوات اليونانية التى كان يقودها بدورها مرتزقة إنجليز فى المعركة تلو الأخرى. ولما اقتضت الحاجة عودة سيف إلى مصر وتعيين بديل له استأجر الوالى أحد جنرالات نابليون السابقين هو بيير - فرانسوا - اكزافييه بوابيه ليتولى تدريب وتأهيل الجيش المصرى المتنامى. كان بوابيه أحد قدامى المحاربين فى حملة نابليون وضابط فى جيش الشرق العظيم الذى جاء محمد على لقتاله وهو مرتزق ألبانى شاب.

وتعبيرا عن مثالية التنوير فى تلك الأيام الخوالى أعلن بوابيه: «سيجدنى جنرال الجمهورية بونابرت مستعدا على الدوام لأن أتبعه فى أى مكان لكن لو ساورنى مجرد الشك فى أنه تحول إلى

قيصر فسأكون أول بروتوس يغرس الخنجر فى قلبه» وبعد ربع قرن لاحقا أصبح بوابيه نفسه مرتزقا شأن الكثيرين الآخرين من مواطنى الجمهورية الفرنسية المفقودة.

وأعجب بوابيه بارون الإمبراطورية بالنابليونية الذى سينقش اسمه فيما بعد على الجانب الشمالى لقوس النصر كبطل لفرنسا بنجاح سيف مع قوات مناوئة لتدريبه وقال « إن فضل إقامة جيش الوالى يعود إلى دأب ومثابرة هذا الضابط لكنه كان يمقت كل المقت العاملين الذين أبقاهم سيف ووصفهم بقوله : إن تلك النوعيات من الأوروبيين الذين وجدتهم يعملون مدربين بين صفوف الجيش.. ماهم إلا لاجئون جميعاً.. إنهم أشد الرعاع سوءا على وجه الأرض فهم بدون شخصية بدون إيمان لا يعرفون معنى القانون والشرف.

كان بوابيه المواطن العادى من الوجهة الرسمية يرفع تقاير غير مباشرة لوزراء الحكومة الفرنسية التى سعت لإثناء الوالى عن قتال اليونانيين، واستغله الوزراء للتلميح بمساعدة فرنسية لمحمد على إذا غير موقفه وأعلن حرب الاستقلال من جانبه ضد الأتراك. «وبعد خمس عشرة عاما وعندما اقتضت الضرورة طلب هذا الدعم

ولم يحصل عليه مطلقا». وسواء أكان يدرك لعبة بواييه المزدوجة أم لا فقد انتقده دروفيتي بأنه أكثر لهفة للحصول على المال أكثر من لهفته على إنجاز المشروعات الفرنسية.

وبدون مساعدة دروفيتي الذى اعترف بواييه بأنه أكثرخلصاء الوالى ثقة انتهت المهنة الثانية للجنرال السابق فى مصر نهاية سيئة. فبعد عامين فقط من عقده المبرم لعشر سنوات، وقبلت استقالته بدون صعوبات، وعلى حد قول دروفيتي وعاد إلى فرنسا فى نهاية سبتمبر ١٨٢٦ مبحراً مع جياده على نفس السفينة التى أقلت الزرافة من الأسكندرية إلى مرسيليا.

وفى مستهل الثورة اليونانية احتفت الصحافة الفرنسية بالخسائر التى منى بها الأتراك على يد الوطنيين البواسل الذين يحملون البندقية فى يد والسيف بين أسنانهم، ولكن وبعد أن تحولت الانتصارات اليونانية الأولية ضد الأتراك إلى هزيمة منكرة على يد المصريين بعد أربعة أعوام ظهر محمد على فى صورة الشرير فى عين أوروبا.

وقد دعت الصحافة الفرنسية التى صورت حرب الاستقلال اليونانية كمعركة التنوير الخاسرة فى سبيل حقوق الإنسان إلى

التدخل الأوروبى فى الحرب. وحفلت التغطية الصحفية بتقارير عن الأعمال الوحشية التى ارتكبها البرابرة العرب بحق المدافعين عن مسقط رأس الديمقراطية من قبل، ويقال إن غضب الأتراك مروع، وبالفعل.. فقد ذبح أكثر من ألفى امرأة وطفل.. وأججت تلك التقارير المطالب الداعية إلى عودة الحرب الصليبية.

وفى عام ١٨٢٤ أعتلى شارك العاشر عرش فرنسا. وفى أوائل العام التالى وإثر الانتصارات المصرية فى اليونان ، هدد قيصر روسيا بأن يهب لنجدة المتمردين وليس للدفاع عن الديمقراطية التى كان يمقتها بشدة بل لتحرير بلد مسيحى من المسلمين. وكان البريطانيون الذين كانت سياساتهم العملية دائماً لخدمة مصالحهم الوطنية أكثر انشغالا بإبعاد الروس عن المتوسط ولتحقيق هذا الهدف فقد عارضوا التدخل الأوروبى ولكن فقط طالما بقيت فرنسا خارج الصراع، ورغم تعاطف الرأى العام الفرنسى إلا أن الملك الجديد شارل العاشر المتعالى «الذى ستضطره مشاكله الخاصة مع الصحافة إلى تنازله عن العرش عام ١٨٣٠»، لم يبد أى تعاطف بأى شكل مع الانتفاضة الديمقراطية. ومن قبل وبعد وثلاثة أيام فقط من استيلاء الجماهير على الباستيل فى



الملك شارل العاشر

الرابع من يوليو ١٧٨٩ كان قاد أول نزوح ملكى للخروج من فرنسا. وفى عام ١٧٩٣ أعدمت الثورة الفرنسية شقيقه الأكبر لويس السادس عشر الذى كان صانع أقفال هاو أفضل كملك. وأعدمت شقيقته بالمقصلة عام ١٧٩٤.

فضلا عن هذا كان شارل العاشر يشكل خروجا على فرنسا القرن التاسع عشر: رجل فرنسى مدين بالفضل للإنجليز يشعر بالإمتنان لفترة لجوئه الهادئة خلال الثورات الفرنسية والحقب النابليونية. وعند إبحاره إلى بورت سماوث عام ١٧٩٥ بعد السنوات الست الأولى التى هام خلالها على وجهه فى منفاه وجد الأمير اللاجئ سياسيا دائنيه فى انتظاره على سطح السفينة. وأنزلته حكومة جلالة الملك حرصا منها على عدم إرباك ضيفها الملكى «فضلا عن سخائها» ليلا وأنقذته من سجن دائنيه.

ومع عودة الملكية إلى فرنسا أصبحت حديقة حيوان باريس مرة أخرى معرضا ملكيا للحيوانات البرية. وبعد فترة وجيزة من إعتلاء شارل العاشر للعرش عممت وزارة خارجيته توجيها من المتحف الوطنى للتاريخ الطبيعى فى باريس للسفراء والقناصل الفرنسيين فى مختلف أنحاء العالم، يتضمن تعليمات إلى الرحالة

والمسافرين والعاملين فى المستعمرات، تعرب عن رغبة الملك الجديد فى إثراء مجموعات الحيوان البرية الملكية بالحيوانات من كل مكان ولم يضع دروفيتى لحظة واحدة وسارع بإرسال هدية عبارة عن ظبيين أفريقيين «ذكر وأنثى» حاز بفضلهما على رضا الملك الجديد.

وأصبحت قنصلية دورفيتي المتمرسة في تهريب الحيوانات الخاصة تشارك رسميا الآن فى إرسال الحيوانات إلى فرنسا كهدية رسمية من محمد على واكتشفت وزارة الخارجية قانونا للملاحة البحرية غير معمول به يفوض قناصل فرنسا في الشرق الأوسط بأن يطلبوا من ربابنة ومالكى السفن الفرنسية شحن الحيوانات الأجنبية النادرة الخاصة بالمجموعات الملكية على سفنهم.. وستقام شكوى رسمية ضد «البحارة» الذين يعترضون على شحن الحيوانات على السفن وسيحكم عليهم بعقوبات مشددة.

كانت تلك الحيوانات تجعل الحياة على السفن التى تمخر البحر المتوسط حافلة بالإثارة البالغة، ووثق أرشيف مرسيليا وصول ببغاء مجلوب أصلا من اليمن وسنورى هدية من محمد على

من الاسكندرية ووصف بشكل غامض على أنه «قط برى» يحتاج إلى قفص جديد، وبأسرع ما يمكن، وطلب قبطان سفينة أخرى فور وصوله قادما من الأسكندرية سلسلة لربط ضبع كان يوشك على الفرار من القفص. وأكدت السلطان المحلية الأمر على هامش مذكرة للقبطان تعترف فيها بخطورة، هذا الكائن المتوحش وتطلب منه ضمانا باتخاذ، كل الاجراءات الوقائية.. لعدم تعريض السلامة العامة للخطر بأى صورة دون إبطاء.

وتضافرت لهفة دروفيتى على تزلف الملك الجديد شارل العاشر ورغبة محمد على فى مصادقته في إلهام القنصل العام بفكرة إرسال أول زرافة إلى فرنسا وستؤدى مثل تلك الهدية التاريخية المثيرة إلى مزيد من تسلل دروفيتى ليحظى بالرضا الملكي وربما تساعد فى تخفيف السخط على غزو الوالى الوشيك لليونان.

وحتى قبل ميلاد الزرافة خريف عام ١٨٢٤ كان الوالى قد أمر بأسرها بالفعل. وقطع مرسومه ستة أيام عبر الترعة التى كانت قد اكتملت لتوها بين الاسكندرية والقاهرة ثم شهرين عبر النيل إلى حاميته الجديدة فى الخرطوم. وفى ذلك الخريف بعد موسم الأمطار انطلق الصيادون العرب من سنار على مسافة مائتى ميل

جنوبا على النيل الأزرق. وأوصلتهم مسيرة عشرة أيام إلى مراعى السافانا فيما كان يعرف بأثيوبيا في ذلك الحين وهى الآن منطقة جنوب شرق السودان وفى شهر ديسمبر كانت الزرافة بنت شهرين بالكاد لا يزيد طولها عن قامة الرجال الذين قتلوا وذبحوا أمها ليستخلصوا منها لحما حملته أربعة جمال.

وعيون الزراف أوسع العيون من بين كل حيوانات الأرض قاطبة. وتمكنها هذه القدرة المذهلة على الإبصار عن بعد من التعرف والاتصال ببعضها البعض بالبصر من مسافة ميل دونما حاجة للرائحة والصوت وبهذه السمة تطورت لتكتسب سمعة المخلوقات شبه الصامتة التى تميل للعزلة وتتسم بالوقار. وبهذه الصفة دفعتها غريزتها لأن تحدد لنفسها مسافة أمان أو فرار - وهى أقصى مسافة يسمح لكائن غريب مفترس بالإقتراب - فى حدود مائة ياردة من أى حيوان آخر فى السافانا. ويبدو أنها تملك موهبة التنبؤ المبكر بالغيب مما حدا بالمصريين القدماء إلى استخدام شكل الزرافة فى اللغة الهيروغليفية لتعنى «التنبؤ أو التكهن».

ولا تنم مشية الزرافة الخفيفة الغريبة المشاكسة غير السريعة عن حقيقة أن الزرافة البالغة يمكن أن تودى بحياة أسد برفسة

واحدة كما أنها تفوق الحصان فى سرعته، ومن الأقوال المأثورة للصيادين العرب أن الحصان الذى يستطيع ملاحقة زرافتين فى يوم واحد خليق بالملوك. وتستطيع الزرافة البالغة بداءة أن تسبق الحصان فى سرعته لكن رئتيها صغيرتان بالنسبة لجسمها الضخم. وشأن كل حيوانات السافانا الأكبر حجما تطورت الزرافة لتعدو بسرعة تفوق قدرتها على التنفس. وطارد العرب الزرافة الأم فى تتابع ليجهدوها ثم أطبقوا عليها لشل حركتها بسيوفهم الطويلة قبل الإقدام على طعنها. ورغم الطعان فسوف تقاتل حتى الموت فلازال بوسعها قتل رجل بحافرها الأمامى أو اسقاط حصان بدورة ماحقة من رأسها ورقبتها الطويلة.

وتتفرد كل زرافة بعلاماتها المميزة مثل بصمة أصابع الإنسان. وسيباع جلد الزرافة الأم الذى يبلغ سمكه بوصة واحدة ولا تستطيع اختراقه أشواك شجر السنط الذى طالما حمى وليدها من الأسود والفهود وقطعان الضباع وأبن آوى وسيقطع ليصنع منه محاربو القبائل دروعهم أو دلاء المياه أوالسياط الطويلة، وسيصبح ذيلها منشة ذباب ملكية بعد أن كان يعتقد أنه سحرى منذ أن رسمت الرسوم الكهفية ما قبل التاريخ الزراف لأول مرة ككائن

يصطاد ويثمن. وستنسج بعض جدائلها لتصنع منها تعويذة وأساور سحرية لا تزال تقدم حتى اليوم فى تجارة السياحة الأفريقية. أما قصبة الساق الطويلة فستستخدم كهراوات أو تصنع منها آلة الفلوت.. وسيباع لحمها لذيذ الطعم أو تتم المقايضة عليه.

ووقعت فى الأسر أيضاً زرافة ثانية شابة، أنثى أخرى لكنها واهية. ولأن الزراف يعيش فى مجموعات متفرقة تضم كل منها ما بين ثلاث إلى أربع من الكبار فإن الإناث يقمن برعاية رضيع واحد بعد فترة حمل طويلة لأربعة عشر شهراً فمن المحتمل أن تكون الزرافتان الأسيرتان أختين غير شقيقتين. وعلى مدى الأيام التالية روضت الزرافتان الأسيرتان بحرص بالغ على قبول تناول اللبن من صياديهما . ثم وبعد أن ربطتا مقيدتا الحوافر محمولتان على الجمال، وبدأتا الرحلة فى قافلة مع قطع جثتى الأمهات صوب الشمال بالمسير إلى سنار.

والتمست كل من الزرافتين اليتيمتين السلوى فى الأخرى لكن لم تستمر حياتهما فى الأسر إلا أنهما فتيتان ولا تزالا فى طور الرعاية. كان الصيادون يعرفون من خبرتهم مع الوحوش أن زرافة

مفطومة أكبر وأقوى ستنذر نفسها إما للإستماتة فى القتال لتهرب بنفسها أو تترك نفسها للموت جوعا بإمتناعها عن الأكل.

كان الهلاك مصير كل الزراف غير القابل للترويض الذى يستحيل إبقاؤه على قيد الحياة اللهم بإستثناء الأصغر سنا. وحتى الزرافات الأصغر سنا أصبن فى معظم الأحوال بالضرر فى هلعها الأخرق. لكن لو كان أصغر بما يكفي للسيطرة عليها لبضعة أيام من دون ضرر لكان إطعامها قد بث فيها الطمأنينة وحول إرتباطها من أمهاتها إلى رعاتها من البشر.

ومنذ يوم وقعها فى الأسر وخلال رحلتها التى دامت عامين ونصف العام فوق الجمال وعلى المراكب النيلية ثم على السفن الشراعية بالبحر ثم على أرجلها الأربعة حتى باريس لم تكتب الحياة للزرافة الصغيرة إلا بمساعدة حجمها: فقد ظلت رشيقة القوام طيلة تلك الرحلة. لقد كانت من نوع الماساى وهو النوع الأكثر رشاقة والأصغر حجما بين ثلاثة أنواع من الزراف أما روتشيلد فهو النوع متوسط الحجم والزراف ذات العلامات

الشبكية تتسم بعلاماتها الأكثر تحديداً وهى الأكثر ضخامة، ويتراوح طول الزرافة عند مولدها ما بين أربعة إلى ستة أقدام وتنمو ببطء ليتضاعف طولها ثلاث مرات تقريباً عند البلوغ. وقد يصل أرتفاع ذكر الزراف من النوع ذى العلامات الشبكية ما يتراوح بين ثمانية عشر إلى عشرين قدما ويبلغ وزنه ثلاثة آلاف رطل بيد أن تمام اكتمال إرتفاع الزرافة عند النضج والبلوغ يزيد قليلا عن أثنى عشر قدما وهو ارتفاع ضئيل حتى بالنسبة لنوع الماساى ألا أنه حجم صغير فاتن وسلس القيادة.

وباعتبارهما من ممتلكات الوالى الطاغية كانت قيمة الزرافتين الشابتين تتساوى مع حياة رعاتهما. كان الجوع والأيادى الحانية فى تلك المغامرة المميتة هى التى أبقتهما على قيدة الحياة اعتمادا على لبن الجمال فى البداية ثم لاحقا على لبن الأبقار التى أدرت خمسة وعشرين جالونا من اللبن يوميا لكل زرافة.

وروض هذا التآلف مع البشر وكل الأماكن وجحيم العبودية فى سنار والخرطوم الزرافتين لتتحولا إلى حيوانات أليفة بالفعل وإلى

جانب هذا فإنه يفسر الحب الجارف الشهير الذى لاقته من الجماهير طيلة حياتها.. وحتى فى سنار والخرطوم كانتا كائنتين نادرتين. وفى فرنسا تجمع سكان الأقاليم البسطاء والباريسيون المترفون أيضاً ليصيببهم الخوف أو يتملكهم الرعب أو لمجرد الفضول والعلم بالشئ لرؤية هذا الكائن الأسطورى القادم من عالم غريب. لكن أيا ما كانت توقعاتهم فإن كل من شاهدها قد فتن بها باعتراف الجميع بشكل لا يمكن إنكاره لأنها أظهرت هذا القدر المفاجئ من الثقة فيهم.

الفصل السادس
بحـــر اللبـــن

فى سنار نقلت الزرافتان الصغيرتان إلى المركب النيلى «الفلوكة» وانضمتا إلى المأساة الإنسانية «العاج الأسود» أى العبيد الذين يركبون النيل بإتجاه الخرطوم، وعلى نقيض العبيد ظلت الزرافتان فى الحامية الجديدة لتتما النضج ويشتد عودهما لاستكمال الرحلة عبر النيل.

وسر الوالى أيما سرور بالأنباء الواردة من الخرطوم. أما وقد أصبح بحوزته زرافتان فسيكون بوسعه استخدام إحداهما لأسر لب أصدقائه الفرنسيين وسيستخدم الأخرى لتملق البريطانيين. وسيسدى دروفيتى وخادمه حسن النصائح اللازمة لبقاء الزرافتين على قيد الحياة. كان حسن بدويا عاش فى الصحراء لكنه هجر حياة البداوة والصيد. وأصبح الآن خبير دروفيتى الأول فى تربية الحيوانات وبفضله ستمتلك فرنسا أول زرافة فى تاريخها وكذلك ستكون الزرافة الثانية بمشيئة الله من نصيب بريطانيا.

كان حسن قد أنجز تلك المهمة من قبل لمحمد على. ففى عام ١٨٢٣ وقبل أن يتولى رعاية حيوانات دروفيتى التى تطلب بالبريد رافق حسن زرافة أخرى، ذكرا شابا أرسله محمد على إلى السلطان فى الآستانة، هدية تبرهن على نجاح الوالى فى توسيع الإمبراطورية العثمانية بغزوه النوبة والسودان ذلك العام. لم تكن الآستانة قد رأت زرافة منذ القرن السادس عشر عندما أرسلت واحدة للمشاركة فى مهرجان ختان الصبى ولى عهد السلطنة. فقد كان محمد على يتطلع للحصول على رضا السلطان. كان حسن يعرف من خبرته فى صيد الزراف وأسره أن تلك الحيوانات بحاجة لإستمرار نظام تغذيتها باللبن. لكن الأتراك الأغبياء المكلفين برعاية الزرافة تجاهلوا هذا البدوى العربى الخشن ومالبث الرمز المثير لتقدير الوالى لنفسه أن هلك.

أما فى هذه المرة فقد حظيت تعليمات حسن التى تولى دروفيتى نقلها حرفيا وشخصيا لمحمد على نفس قوة الأوامر الملكية التى كانت تصدر باستمرار من قصر الاسكندرية إلى الموظفين بالقاهرة ثم عبر النيل إلى المسئولين عن الزرافة ورفيقتها. وسينطلق حسن من عفر بينما ستنشأ الزرافتان فى الخرطوم وإلا أطيح بالرؤوس.

وأقيمت حامية الخرطوم قبل أشهر قلائل من وصول الزرافة ورفيقتها. وعلى مدى ستة عشر شهراً أمضتاها فى الحامية ليشتد عودهما إتسع المعسكر الحربى ليتحول إلى قرية من الأكواخ المبنية من الطوب اللبن تأوى المشرفين على تجارة العبيد الجديدة لوالى مصر محمد على.

وفى الربيع والخريف تمتلئ سماء الخرطوم بطيور القلق المهاجرة محلقة فى أسراب ضخمة تتشكل من كل إلفين لا يفترقان طالما تدب فيهما الحياة ببطء شديد وتبدو وكأنه يستحيل عليها الإستمرار فى الطيران وهى تقتفى صفحة النيل من وإلى أعشاشها فى أوربا. وفيما أسراب اللقلق تواصل التحليق تكون الاسكندرية على قيد ألف ميل من الخرطوم وهى نفس المسافة التى يقطعها النيل على شكل حرف «S» لبلوغ الحدود المصرية. ومن الخرطوم تتضارب مختلف تواريخ رحلة الزرافة على مركبها النيلى. وتستند التقارير الفرنسية اللاحقة بالكاد إلى المحادثات المترجمة لرعاة الزرافة العرب الأربع فى مرسيليا ومنهم إثنان ظلا مجهولين ولم يظهرا فى السجلات الفرنسية حتى عودتهما إلى مصر بعد وصولهما إلى فرنسا.

وحددت سجلات جمارك مرسليا رسميا هوية الرجلين الآخرين اللذين أبحرا مع الزرافة من الأسكندرية ورافقاها لاحقا حتى باريس بأنهما حسن السايس الرئيسى للزرافة ومساعده عطير.

ووصف دروفيتى عطير، بأنه خادمى الزنجى، لكن سان - هيلير قدمه لملك فرنسا بأنه عبد سابق لدروفيتى، وكان الشائع فى ذلك الحين أن يشترى الأوروبيون المغتربون فى مصر الخدم الذين يعتبرون أحرارا بحكم إقامتهم مع الأجانب.

وأصبح العبيد موظفين ولا سيما بين الفرنسيين المقيمين فى مصر. وفى عام ١٧٩٤ حظرت الثورة الفرنسية الرق فى فرنسا وفى مستعمراتها ومنحت الزنوج كل حقوق المواطنة التى يحظى بها المواطنون الفرنسيون. لكن المساواة فى المجتمع الفرنسى حظرت فى البداية الحصول على عضوية الأندية ومنظمات الأعمال والمنظمات الدينية بل وحتى الجمعيات الأدبية.

كان عطير سودانيا تدل ندوب وجهه على نشأته فى المنطقة الواقعة إلى الجنوب من سنار. ومن قبيل التعذيب بالأمانى الرومانسية استنتج أنه كان بوسعه رعاية الزرافة فى الخرطوم وأنه أحضرها مع أو بدون حسن عبر النيل قبل حياتهما معا.

فى باريس ، لكن ثم رواية عربية ناقصة وضعيفة عن أسر الزرافة ورحلتها التالية تقول إنه لم ينضم إليها أى رجل قبل القاهرة .

ومع قيام إبن أخ دروفيتى بالترجمة بين العرب والعلماء فى مرسيليا فإن الحقائق المتعلقة برحلة الزرافة من الخرطوم إلى الاسكندرية تناثرت فى كتابات لغوية عجيبة غير مفهومة المعنى، أما وقد اعتمدت على اللبن الذى غذاها به الإنسان منذ طفولتها فلم تفطم الزرافة حتى وهى شابة بالغة. وشرح العرب سر تفضيلها للبن على الماء وهى فى الأسر فى بلدها الأصلى على النحو التالى:

من بحيرة كبيرة ماؤها أبيض صاف شديد العذوبة يميل إلى الدفء اعتاد (الزراف) أن يأتى هناك حتى من الأماكن البعيدة ليروى عطشه. وهذا هو السبب الذى جعله لا يريد ولا يقبل فى الأسر سوى اللبن «اللبن الطازج من الإبل أو البقر» بنفس لون وطعم ودفء ماء هذه البحيرة وهى بحيرة غاية فى الطول لكنها ليست بالغة العرض وفيها يجد المرء أعدادا

ضخمة من التماسيح والحيوانات الضخمة لابد وأنها فرس البحر طبقا للوصف. ويطلق العرب على بحيرتها هذه إسم البحر الأبيض والتى تعنى حسب السيد دروفيتى ،، بحر اللبن .

وبالبحث فى الخرائط عثر العلماء الفرنسيون على البحر الأبيض وهى التسمية العربية للنيل الأبيض رغم أن الزرافة أسرت من مكان بعيد ووصلت إلى الخرطوم عبر النيل الأزرق .

ويحيط تضارب شديد بفترة الأشهر الستة عشر التى ذكرها العرب - أو هكذا ترجمت - بإعتبارها الفاصل الزمنى بين أسر الزرافة فى سنار حتى الإفراج عنها من جمارك مرسيليا فى ١٤ نوفمبر ١٨٢٦، وأعد أكاديمى فى مرسيليا أكتفى بذكر أن اسمه مستر سالز أروع الروايات عن الزرافة وفيها يقول ، قطعت الزرافة الشابة الرحلة من سنار إلى القاهرة ترافقها زرافة أخرى من نفس نوعها وسنها. مع القوافل برا فى جزء من الطريق وفى جزء آخر بالنيل على متن مركب أعد خصيصا لها .

وقبل أن يخضع الأتراك أعالى النيل لم يكن هناك نقطة وصول على النيل تأمن غارات القبائل سوى مدينة أسوان التى تقطع خط

الصحراء إلى الشمال من الشلال السادس بعد الخرطوم، لكن سان هيلير من جانبه يكتب فى الربيع التالى فيما هو يرافق الزرافة من مرسيليا الى باريس ليضفى مزيدا من الحيرة قائلا ،، سافرت الزرافتان فى البداية على الأقدام مع قافلة توجهت من سنار الى أسيوط ثم ركبتا النيل من أسيوط إلى القاهرة .

وتبعد أسيوط مسافة مائتين وخمسين ميلا عن أسوان يمكن الإبحار فيها بسهولة عبر النيل بما يجعل رحلة البر غير ضرورية ، لكن وفى ضوء معرفة الأوروبيين المحدودة فى القرن التاسع عشر بالنيل - وغزو الوالى مؤخرا للنوبة والسودان فسيكون من الخطأ منطقيا افتراض أنه لو كان يتعين على الزرافة ورفيقتها سلوك البر بمحاذاة الشلالات الستة لانتهت تلك الرحلة فى أسيوط ، فأسيوط هى نهاية طريق القوافل القديم الشهير بدرب الأربعين، وهذا الطريق لا يسير بمحاذاة النيل فهو ينحرف جهة الشمال الشرقى خارجا من غرب السودان الذى يشكل المرحلة الأخيرة من طريق طويل يبدأ من تمبكتو وما كانت الزرافة ورفيقتها لتسلكاه .

يضاف إلى هذا درجة الحرارة الشديدة. فلو قام المرء بإحصاء فترة الأشهر الستة عشر التى انقضت قبل وصول الزرافة إلى مرسيليا فى نوفمبر يبدو من المستحيل الاعتقاد بأن الزرافتين

البالغتين من العمر ثمانية أشهر اللتين أمر الوالى بنفسه بتوفير أقصى درجات الرعاية والاحتياط لهما تستطيعان السير عبر الصحراء فى لهيب حرارة منتصف يوليو. فالمسيرة بدون ماء من بربر إلى أسوان تقتضى أكثر من أسبوعين لقطع ثلاثين ميلا بالغة القسوة يوميا كما أن درجة الحرارة فى الصحراء في شهر يوليو تبلغ ١٤٠ درجة فهرنهايت أثناء النهار .

فضلا عن هذا فإن هذا الترتيب الزمنى غير المنطقى الذى يختصر الأشهر الأربعة بين وصول الزرافة إلى الأسكندرية وبين اليوم الذى وطأت فيه أرض فرنسا يقتضى أن تستغرق رحلتها من سنار عبر النيل أحد عشر شهرا الأمر الذى يصعب تصديقه، وعلى النقيض فإنه فى عام ١٨٤٩ أبحر فرس نهر متجه إلى انجلترا من الخرطوم الى البحر المتوسط على مدى ستين يوما فقط.

وهناك أيضا مسألة صحة الزرافة الأخرى . فقد كانت قدماها شديدتى الوهن لدرجة لم تستطع معها الوقوف بعد وصولها الى لندن فى العام التالى ولم تقو على حملها لفترة طويلة . كان دروفيتى قد كتب لوزير خارجيته لدى رؤيته الزرافتين بالأسكندرية

يبلغه بأن رفيقة الزرافة، مريضة ولن تعيش طويلا، بينما الزرافة الأولى ، عفية وقوية ، لم تكن أى منهما قد اكتمل نموها بالقدر الكافى لكن المؤكد أنهما كبرتا على حملهما على الجمال كما كانتا رضيعتين عند أسرهما . والأهم هو أن الزرافتين لم تكونا قد فطمتا بعد ولا تزال كل واحدة منهما تستهلك فى ذلك الحين ما يصل إلى خمسة وعشرين جالونا من لبن البقر يوميا وفقا لأحدث تقرير من حسبن وعطير فى مرسيليا ، ويتطلب توفير مثل هذا القدر من اللبن بينما هما فى الطريق من الخرطوم الى القاهرة مجموعة لا تقل عن ست بقرات ما كانت تستطيع الحياة بدون السير مع القوافل.

وتدل المصادفات التاريخية ومنطق الفصول على أن الزرافة ورفيقتها وعبر رحلتين يفصل بينهما ستة عشر شهرا قد شحنتا لمسافة ألفى ميل كاملين بالنيل الأزرق ثم فى النيل من سنار حتي الأسكندرية .

ويبلغ طول المركب النيلى (الفلوكة) الكبيرة نحو أربعين قدما يديرها طاقم يضم أكثر من إثنتى عشر رجلا، وتخرج ذراع الدفة

في تلك المراكب من سطح كابينة خلفية يتراوح حجمها من سطح مرتفع بسيط الى سطح علوى بنصف طول البدن . ويمكن أرجحة وتدوير إثنين من الأشرعة الرشيقة مثلثة الشكل تتدلى لياردات فوق صوارى أصغر ورفعها عاليا متداخلة مع بعضها أو نشرها بإتساعها على أى جانب . وقعر المركب عريض ومسطح يتكيف مع قاع النهر المتغير وهى منخفضة عند المقدمة لتسهيل تحريكها عند الجنوح، وبالمؤخرة المرتفعة يتم رفع المركب أو تغيير اتجاهها أو جذبها أو دفعها للخلف فوق صخور الشلالات الستة فيما بين الخرطوم وأسوان .

وباستثناء مواسم الفيضانات الغزيرة فى الصيف أو التحاريق عندما ينخفض التيار لا تساعد على سحب المراكب عبر الشلالات فإن الملاحة تجرى بيسر فى أعالى النيل. وشهرا مايو ويونيو هما الشهران المثاليان على مدار العام عندما يبدأ النيل فى الارتفاع مع هبوب الرياح من الجنوب، ومن الخرطوم وعبر الشلالات الى البحر تستغرق الرحلة شهرين بما يجعل شهر يوليو الموعد الأنسب لوصول الزرافة إلى الأسكندرية .

ولابد وأن الزرافة استقرت على السطح بين الكابينة والصوارى تستظل بخيمة كالكنافاه مفتوحة من الأمام والخلف للتهوية ، كانت المراكب المتجهة نحو الشمال تحمل قرودا مطلقة السراح على السطح تتسلق الصوارى وتتقافز على حبال الأشرعة كما رسمت على الجداريات والمنحوتات المصرية القديمة منذ آلاف السنين. وعند كل شلال لابد وأنه تم إنزال الزرافتين فيما بقيت القرود ليمتزج صراخها مع الأغانى التى يرددها الرجال وهم يمسكون بالحبال على ضفتى النهر ويجذبون من السطح .

وعندما سافرت الزرافة على النيل ربيع عام ١٨٢٦ كان معظم ركاب النهر بلا مبالغة عبيدا منقولين الى القاهرة ، ولابد وأن البشر الأسرى قد تعجبوا لدى رؤيتهم مركبا أخرى تحمل زرافتين. فياترى ماعسى أن تكون النساء الأثيوبيات قد فكرن فيه وهن مكدسات فى قنوط وهن يرين الزرافتين المجلوبتين من موطنهن ؟

وفى الليل تبحر المراكب جنبا إلى جنب ويتجمع أفراد الأطقم. ووصف فلوبير واحدا من تلك اللقاءات ، أهدانا السيد.. لفات من

ريش النعام .. وقامت سيدة بتمشيط شعرها بشوكة حيوان الشيهم : كانت الضفائر الرفيعة تحل الواحدة تلو الأخرى ثم يعاد جدلها مرة أخرى.. وعلى كل تلك المراكب توجد بين النسوة زنجيات كبيرات في السن يجعلن الرحلة أو يعدن جعلها قابلة للاستمرار ، ومهمتهن هي بث السلوى في نفوس العبيد الجدد ورفع معنوياتهن فهن يروضهن على الاستسلام لمصيرهن ويعملن مترجمات بينهن وبين تاجر العبيد العربي .

وفيما الزرافة ورفيقتها تبحران بمحاذاة طيبة القديمة ، والأقصر حاليا كانت هناك بالفعل زرافتان أخرتان توجد كلتاهما عاليا بجبل البر الغربي وكلتاهما هدية ملكية وكلتاهما أقدم من مسلات معبد الأقصر انتظرت عدة عقود أخرى ليكتشفها علماء المصريات .

كانت إحداهما منقوشة علي جدران معبد حتشبسوت أول سيدة تتولى حكم مصر والتي لم تكن بعثتها الى بلاد بونت في القرن الخامس عشر قبل الميلاد تسجيلا لأول اهتمام انثروبولوجي بثقافة أخرى فحسب بل جلبت أيضا هذه الزرافة لتضم الى

مجمـــوعة حيواناتها التى شـــكلت أول حديقة معروفـــة فى التـاريخ .

أمـا الزرافة الأخرى فى طيبة فقد نقشت قبل ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة بمقبرة الوزير رخميرع . كانت إحدى مهام الوزير هو تلقى الهدايا الأجنبية نيابة عن الفرعون وهنا على جدران مقبرة الوزير رخميرع وضمن مجموعة الحيوانات نقشت الزرافة وقرد أخضر يتقافز لاهيا على رقبتها الى جانب دب صغير وفيل صغير جلبا من سوريا وفهد إفريقى روضت جميعا ، ومثل زرافتنا كانت تلك الزرافة شابة أطول بالكاد من النوبيين المسئولين عنها طيعة بما يكفى لاقتيادها بحبل من رجلها الأمامية .

الفصل السابع

الـــــوداع

إلى الشمال من القاهرة لايزال البحر يبعد مائة ميل وعند القناطر الخيرية يتفرع النيل لفرعين لا يلتقيان يخترقان الدلتا بما يتفرع منهما من ترع كثيرة ، وتبحر المراكب المتجهة الى البحر المتوسط عبر فرع رشيد فترعة المحمودية لتقطعها فى خمسة أو ستة أيام لتصل ميناء الأسكندرية مع غروب الشمس، وخلال السبعمائة سنة الأولى من تاريخها كانت الأسكندرية أعظم مدن العالم شهرة، وغزا الأسكندر الأكبر مصر عام ٣٣٢ قبل الميلاد وتطورت العاصمة التى سميت علي اسمه لتصبح الميناء الرئيسى علي البحر المتوسط بين أوروبا وآسيا . وتحت حكم خلفائه البطالمة أصبحت الأسكندرية منافسا معماريا لكل من أثينا وروما وأضافة الى فنارها الذى كان إحدى عجائب الدنيا السبع أسست الأسكندرية مكتبتها الأسطورية التى كانت كل السفن الوافدة

تسلمها أى مواد مقروءة لينسخها كتبتها . فالأسكندرية القديمة مدينة الثلثمائة ألف نسمة والسبعمائة ألف كتاب .

كان آخر البطالمة هى الملكة كليوباترا التى هزمها الرومان لينتزعوا منها مصر فى القرن الأول قبل الميلاد . وبعد انتحارها مع مارك انطونيو نقل أبناءها إلى روما كرهائن كان أصغرهما فى السادسة من عمره . وأمر القائد الرومانى المنتصر أوكتافيوس إبن القيصر بالتبنى بإعدام إبن كليوباترا من القيصر البالغ من العمر ثمانية عشر عاما .

وأحرق الرومان مكتبة الأسكندرية لكن الأسكندرية ظلت المركز التجارى والفكرى للعالم المتوسطى على مدى القرون الثلاثة القادمة ، وحفر الرومان أول قناة تربط الأسكندرية بالنيل وأصبحت مصر سلة غلال الإمبراطورية الرومانية ونما سكان المدينة ليصلوا إلى مليون نسمة لتصبح الثانية بعد روما .

وهكذا إلتقت وتفاعلت وازدهرت تجارة وثقافة ثلاث حضارات قديمة فى الأسكندرية هى المصرية والإغريقية والرومانية . ووضعت الخرائط الرومانية والفلك البطلمى الأسكندرية فى مركز العالم. لكن مع انحسار الإمبراطورية الرومانية تدهور حال تلك المدينة

ملتقى السماء بالأرض والتاريخ لتصبح كالبركة الآسنة للدسائس السياسية والتمرد والمجاعة والأمراض. وفى نهاية القرن الرابع عندما أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية دمرت المعابد القديمة للأسكندرية وأغلقت مؤسساتها التعليمية . وفى القرن السابع أكمل الفتح الإسلامى تدمير المدينة . فقد هدم فنار الأسكندرية الشهير إما بسبب زلزال أو كما تقول الأساطير بواسطة العرب الباحثين عن الذهب المدفون . وتركت القناة التى حفرها الرومان ليطمرها الطمى بعد أن هجر المسلمون الأسكندرية وأسسوا عاصمتهم الجديدة بالقاهرة .

وقد أعادت حملة نابليون لمصر تأكيد الأهمية الاستراتيجية للأسكندرية . وأنعش محمد على الميناء بتجارة مصر الخارجية التى أصبحت شديدة الأهمية بالنسبة له لدرجة أنه فى عام ١٨١٩ وبعد إعادة حفر القناة وتسميتها ترعة المحمودية نسبة إلى السلطان التركي محمود أصبحت الأسكندرية مقر إقامته الرئيسى. فنشأة محمد على كانت فى مدنية ساحلية مقدونية صغيرة إبنا لجندى عمل فى إيجار السفن وبالاتجار فى التبغ .

كان البحر مألوفا لديه أكثر من الصحراء والأسكندرية أكثر رفاهية وأكثر ايحاء للعالم بالمكانة التى بلغها من القاهرة .

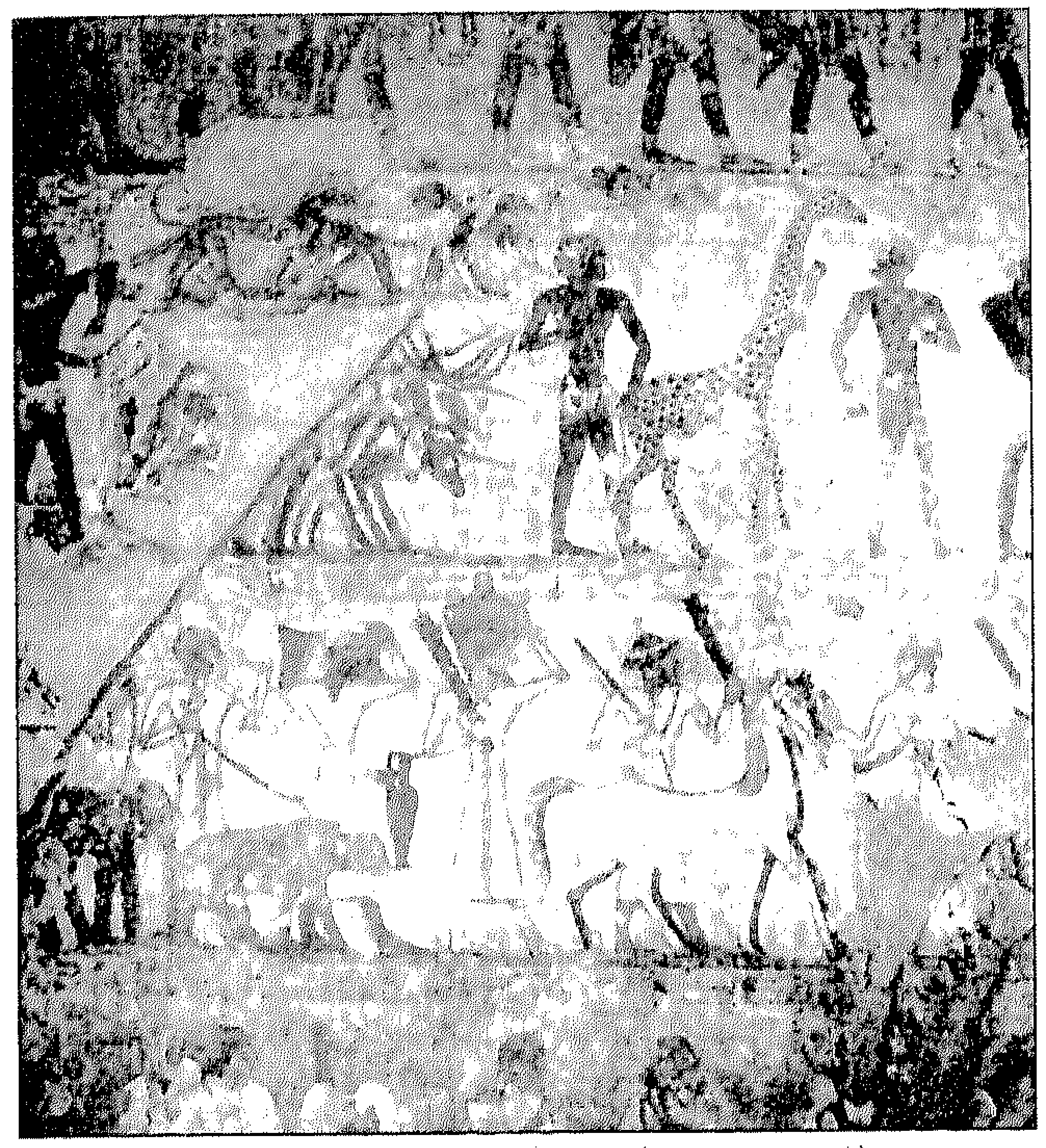
وبحر الأسكندرية شديد التغير غير مستقر إلا فى اتساعه وقوة نشاطه بعد توقف انسياب ماء النيل ، فهو يتقلب ما بين الضحل الفيروزى والعميق الأرجوانى والسطح الشاسع المترامى الأزرق الذى يستحيل الى أزرق داكن عندما تشتد الريح ليتحول الى بحر مائج يعكس السماء، فرمادى فضى تحت السحب تتخلله أعمدة ذهبية من أشعة الشمس، وتتكسر الأمواج القادمة متحولة الى أقواس قزح على جدران القلعة المملوكية الحجرية الرابضة بمدخل الميناء ، والضوء أيضا زئبقى متغير بدون حرارة الصحراء اللافحة . والأصوات العربية تختلف هنا وتواجه التغيير فيما تتحول مصر للاغريقية .

وبعد الحقيقة الناصعة للنيل - حيث الحرارة والطبيعة وخمسون قرنا من التاريخ تؤكد عدم مناسبة أى حياة خاصة - فإن الإسكندرية تمثل راحة بدنية وعاطفية فتورا جميلا متضاربا. فلا يعود الجسم أو العين يكابد ولا يعدو العقل يضنيه البحث عن ملاذ للتفاصيل ، ظل لحظى، شراب ، لمسة حية صغيرة كالقرد

الأخضر الذى تقافز على رقبة الزرافة قبل ثلاثة آلاف وخمسمائة عام .

والآن انتهى عذاب رحلة النيل المضنى لكن للأسكندرية حزن دفين غريب فالزمن ينقضى هنا بلمسة إنسانية يبحر ولا يعود كما كان أبد الآبدين، وتبعا لدرجة الضوء يتغير لون جدران القلعة المملوكية العتيدة الرابضة بين الميناء المعتدل والبحر المائج من اللون الأصفر الضارب فى السمرة الى الأبيض الناصع ، قلعة من الحجر الرملى يرجع تاريخها إلى خمسة قرون فقط . وبدلا من سراب الصحراء الذى يصطخب بطبقة من الفردوس الإسلامى تتلاشى أقواس قزح هنا مع ايقا ع البحر المنعش. ويعزف المرتحل من الجنوب عن المضى يلازمه حنين مرضى لكل ماهو خالد .

ووصلت الزرافتان الى الاسكندرية أوائل صيف عام ١٨٢٦ . وما أن رآها صولت أشد عنفوانا وصحة من رفيقتها حتى أراد الاستئثار بها ، وتفيد الرسائل المتبادلة لدروفيتى بأن الوالى حسم المسألة بأجراء قرعة بين القنصلين المتنافسين على الزرافتين ، أو هكذا تقول القصة ، وفى ضوء طبيعة دروفيتى وعلاقته الأثيرة بمحمد على فمن غير المرجح أن يكون حظ فرنسا فى القرعة قد



زرافه مرسومه على جدران مقبرة مصرية قديمة

ترك هكذا للصدفة ، ومع إغفال التفاصيل كتب دروفيتى الى وزير خارجيته فى باريس يقول ، «يسرنى أن أبلغ معاليكم بأن النتيجة تناسبنا تماما. فزرافتنا قوية وعفية أما تلك التى ذهبت لملك إنجلترا فإنها مريضة لن تعمر طويلا ».

وعلى مسافة ألفى كيلو متر من موطن ميلادهما أمضت الزرافتان ثلاثة أشهر مع بعضهما فى ساحة قصر محمد على المطل على البحر المتوسط .ومع نهاية سبتمبر رتب دروفيتى لنقل الزرافة من الأسكندرية ونظم استقبالها فى مرسيليا .

وبدلا من إعمال سلطاته القنصلية باصدار أوامره بنقل الزرافة على متن سفينة فرنسية فقد عهد بها الى الإيطالى ستيفانو منارا قبطان السفينة الشراعية السردينية المسماة أى دوى فراتيللى(*)، وبعد أربعة وعشرين عاما من التعامل فى ميناء الاسكندرية كان دروفيتى يعرف مختلف السفن الأوروبية وقباطنتها معرفة كاملة فالمهم والأفضل اتخاذ كافة التدابير الإحترازية حتى وإن كانت مكلفة وعدم الاكتفاء بمجرد شحن هذا الحيوان الجميل للملك كشحنة بأجر .

(*) الشقيقان بالإيطالية .

وكلف نقل الزرافة والفريق المرافق لها على السفينة أى دوى فراتيللى خزانة فرنسا مبلغ ٤٥٠٠ فرنك أى قرابة ٧٥٠ دولارا أمريكيا فى ذلك الحين .

ويمكن رؤية ضخامة هذه التكلفة المرتفعة وما تمثله من إلتزام رسمى فى حقيقة أنها تفوق مرتين إجمالى المبلغ الذى انفق علي الزرافة أثناء الأشهر السبعة التى أمضتها فى الأسطبل الذى جهز خصيصا لها فى مرسيليا .

وأصبح حسن الآن مكلفا بالزرافة يساعده عطير، وباتت حاشيتها الجديدة تضم ثلاثة أبقار حلوب وظبيين أرسلهما دروفيتى مع الزرافة (كهدية جديدة لجلالته من القنصل نفسه) . كانت الحمولة تضم أيضا جوادى الجنرال بوابييه الذى كان عائدا الى فرنسا بعد اختصار مهمته العسكرية لدى الوالى .

وفكر دروفيتى فى الإبحار بنفسه برفقة الزرافة حتى مرسيليا لكن مرضه المزمن بدوار البحر منعه من ذلك . ورغم ذيوع المعرفة بمرضه لكن يحتمل أنه وجد فيه ذريعة قوية لأنه بعدم مرافقة الزرافة فلا يمكن تحميله مسئولية الفشل لو ماتت الزرافة في الطريق . وبدلا من هذا فقد أرسل ابن أخيه ليقوم بمهمة الترجمة لحسن الذى لا يمكن الاستغناء عنه .

وصنعت فتحة فى سطح السفينة الشراعية تسمح للزرافة بالوقوف أسفلها مباشرة وغطيت حافة الفتحة بالقش لحماية رقبتها من أى إصابة عند اضطراب البحر، وغطيت بغطاء اشبه بالكانافاه لحمايتها من الشمس والمطر. وشحنت الزرافة بعد أن انفصلت للمرة الأولى عن رفيقتها تقف بين الحيوانات المسافرة فيما رقبتها ورأسها تبرزان مع البشر على سطح المركب – وداع حزين لكنه يرسم صورة رشيقة وإن كانت رمزية لحقيقة انه رغم أن حجمها وقوتها يجعلانها مرهوبة الجانب إلا أنها حظيت بتكريم لا يحظى به حيوان متوحش أو حتى أليف .

أبحرت آى دوى فراتيللى من الاسكندرية تقل الزرافة مع الحمولة الجديدة الصغيرة من رفاقها الجدد من الاسكندرية فى التاسع والعشرين من سبتمبر ١٨٢٦ . وأبرزت السفينة الأهمية الملكية للزرافة برفع العلمين المصرى والفرنسى . وألقى دروفيتى بعبارات الوداع بالإيطالية لابن أخيه وللكابتن منارا وبالفرنسية لبواييه وبالعربية لحسن وعطير. وأضافت المراسم العسكرية التى

أداها جنود الجنرال بوابيه له جلالا وعظمة على الودا ع .

وحمل إبن أخ دروفيتي رسالة مليئة بالتعليمات الصارمة من القنصل إلى موظف الخارجية بمرسيليا جاء فيها :

أرجو أن تتأكد تماما من أن الزرافة تحصل أثناء وجودها فى الحجر الصحى على كل ما يلزم لرعايتها وأن تكون درجة الحرارة مناسبة أثناء إقامتها . ورغم أن هذا الحيوان ليس شديد الحساسية للبرد كما يفترض من موقع موطنه الأصلى فإننى أعتقد أنه من الضرورى الإبقاء عليها فى مرسيليا حتى الربيع .

وإذا توقفت البقرات التى وضعتها على متن السفينة لتوفير اللبن للزرافة عن إدرار ما يكفى من اللبن بعد وصولها فسأكون ممتنا لأن تكون مستعدا لنصح الشخص المسئول عن هذا الموضوع بتدبير كمية إضافية ليصل ما تشربه فى اليوم ما يتراوح بين ٢٠ الى ٢٥ لترا. ولا مفر من استخدام اللبن . فالزرافة

التى أرسلت قبل ثلاثة أعوام إلى سلطان الآستانة قد هلكت لأنهم توقفوا عن اعطائها هذا المشروب رغبة فى التوفير .

وانتهز هذه الفرصة ايضا ان أضع تحت رعايتكم إثنين من الظباء أرسلهما الى الملك وقد أبلغت أمرهما الى وزير البلاط الملكى ، والذكر مصاب بمرض ، يبدو أنه داخلى ولا يفترض أنه الجرب ولذا فلا بد وأنه انتقل بالفعل للإنثى .

إننى أكتب الى معالى وزير البلاط الملكى لأن يأخذ عطير خادمى الزنجى أحد الحراس الذين قدموا لرعاية الزرافة حتى باريس وأن يبقيه مع الزرافة إذا إرتأى أنه الشخص المناسب ، فقد يكون من الصعب على هذا الحيوان التعود على راع أوروبى .

وظلت الرفيقة الهزيلة للزرافة فى الأسكندرية حتى شهر يناير التالى ثم توقفت رحلتها فى مالطة لستة أشهر . ووصلت لندن

أخيرا فى أغسطس عام ١٨٢٧ وعلى نقيض الاستقبال الحافل الذى لقيته الزرافة فى فرنسا فقد اشبعتها رسوم الكاريكارتير المعادية للملك جورج الرابع سخرية. وسرعان ما تدهورت حالتها ولم تستطع الوقوف وأعد لها جهاز رافع ليتحمل عبء وزنها عن أقدامها الهزيلة. وكتب فى تعليق تحت رسم كاريكاتيرى يصور الملك وقرينته يرفعان الزرافة «أعتقد أنه يجب أن نحصل على مقابل مالى لقاء أكلها»، وتوفيت الزرافة فى لندن فى أغسطس عام ١٨٢٩ . ومع أن رسوم الكاريكاتير أغفلته إلا أنه فى الصور الجادة ظهرت تلك الزرافة وفى رقبتها حجاب ليقيها عين الحسود يماثل ذلك الحجاب الذى تدلى من عنق زرافتنا .

الفصل الثامن
الــــزرافــــة

يقع الطريق البحرى بين الأسكندرية والموانى الإيطالية والفرنسية المتوسطية إلى الشمال الغربى لجزيرة كريت فغربا ممتدا للساحل الجنوبى للجزيرة حتى نهايته ثم يعود للاتجاه الشمالى الغربى مرة أخرى حتى ميناء ميسينا الصقلى، وقرب نهاية الأسبوع الثانى للإبحار عندما تسمح الأحوال الجوية تتجه السفن هامدة صوب جبل أتنا بصقلية المنبثق من الأفق ، وأبحرت آى فراتيللى بسلاسة ولابد وأنها شاهدت سحابة دخان البركان الطويلة التى تتقاذفها الرياح من مسافة ١٢٥ ميلا قبل يوم وليلة من الوصول قبالة الميناء الصغير لشبه جزيرة ميسينا التى تتخذ شكل المنجل .

وعلى قيد ثلاثة أميال فقط عبر البوغاز من نقطة انطلاق البر الإيطالى الأشبه بالأصبع كانت ميسينا مركزا تاريخيا لحركة

الملاحة البحرية فى المتوسط أسسها المستعمرون الإغريق واتخذتها قرطاجنة بوابة ملكية رومانية للأسكندرية والقسطنطينية والإمبراطورية الشرقية ومركزا بيزنطيا للمعرفة وبلاطا للمحاربين الشعراء النورمانديين وموطن ميلاد قصيدة السونيتو (المؤلفة من أربعة عشر بيتا) . وقد دمرتها كوارث الزلازل على فترات مختلفة .

وفى زمن الزرافة كانت ميسينا تفضى لكل الجهات، ميناء الدخول والخروج الأوروبى لأسيا وأفريقيا . فسفن القارات الثلاث تعرج الى هنا عبر الطرق الضيقة للراحة والتزود بالمؤن والماء. وبسبب الوباء الذى أودى بحياة ما يقدر بثلث سكان العالم منذ القرن الرابع عشر كان يتحتم على أفراد الأطقم والركاب البقاء على سطح السفن .

ومن هنا وقبالة ميسينا ومن على سطح السفينة آى دوى فراتيللى أبصر وسمع وتذوق كل من الزرافة وحسن وعطير هذا العالم الآخر المختلف ، وفى تلك الآونة كان الباعة يجوبون المرسى فى زوارق صغيرة يبيعون الخضراوات والفاكهة والأطعمة الشهيرة

بكل منطقة والنبيذ للركاب المحاصرين فى سفنهم ، كانت عملات الدفع تجمع فى قدور مليئة بالخل ونحوه من المطهرات .

وفى ميسينا يلتقى الأستوائى بأوروبا ، وبعد أن أخصبها الرماد الذى ينفثه بركان جبل أتنا تمتزج على أرضها أشجار النخيل بأشجار البلوط والصنوبر دائمة الخضرة ، وفى الخريف والشتاء تحتفظ الميادين العامة والحدائق الخاصة باللون الأخضر الغامق بينما لا تنتصب سوى الأشجار العارية فى الشوارع الأكثر أوروبية ، ومن الميناء تحجب الجبال الوعرة التى تكسوها حدائق الزيتون والموالح والكروم منظر ثلج الشتاء الذى يكسو جبل أتنا المعروف بين السكان بمونتيبللو أى (الجبل الجميل) ، وحتى وهو كذلك وعلى ارتفاع أحد عشر ألف قدم فإنه أعلى وأنشط براكين أوروبا إهلاكا ومنذ أن خلع عليه الإغريق القدامى إسما يعنى « إنى أحرق » قبل ٢٨٠٠ عام، ثار البركان أكثر من ١٣٥ مرة راح ضحيته عشرون ألف نسمة لأسوأ تلك الثورات .

وشمس الخريف فى ميسينا قوية لا تزال أقرب لأفريقيا لا إلى فرنسا وبقية القارة الأوروبية ، لكن موسم المطر الذى انتهى الآن

فى أفريقيا يبدأ هنا يشيع الليالى الطوال بمسحة برودة جالبا بريق الشمال مغسولا بمياه المطر الى الضوء .

كان المفكر العربى رفاعة الطهطاوى قد قام بالرحلة من الأسكندرية الى مرسيليا قبل الزرافة بستة أشهر، فقد أوفد محمد علي ، الشيخ الطهطاوى الى باريس ورافقه على السفينة أعضاء أول بعثة تعليمية موفدة من قبل الوالي إلى أوروبا وتضم ثلاثة وخمسين دارسا ، واستقل الدارسون العرب السفينة الحربية الفرنسية .. لا ترويت ورافقهم على السفينة الببغاء المجلوب من اليمن والقط البرى فى قفصه المنيع .

ووصف الطهطاوى ميسينا كما رآها من سفينته التى لم يسمح له بمغادرتها بقوله « وأقمنا بموردتها خمسة أيام وشاهدنا من بعد قصورها العالية وهياكلها الشامخة السامية . ورأيناها توقد قناديلها ووقداتها قبل أن يدخل وقت الغروب ، وتمكث بعد شروق الشمس . والظاهر أن مدة مرورنا بها كانت عيدا، حيث أننا سمعنا بها أصوات النواقيس مدة إقامتنا ، حتى أن ضربهم النواقيس مطرب جدا ».

وفى ذلك الحين كان الزرافة ورفيقتها لا تزالان تستمعان لصوت الآذان فى الخرطوم قبل شهر واحد من ركوبهما النيل لتواجهان مصيرا مختلفا فى الحياة ، ومضى الطهطاوى قائلا: وقد صنعت فى ليلة من هذه الليالى، فى المحادثة مع بعض الظرفاء ، مقامة ظريفة ، مضمونها ثلاثة معان : ثالثها فى تأثر النفس بضرب الناقوس ، إذا كان من يضرب الناقوس ظريفا يحسن ذلك ، وقد أنشدت فى هذا قول الشاعر :

مذ جاء يضرب بالناقوس قلت له

من علم الظبى ضربا بالنواقيس

وقلت للنفس ، أى الضرب يؤلمكى

ضرب النواقيس أم ضرب النوى ، قيسى

فياترى ماذا ظن الميسينيون بالزرافة ذلك الكائن طويل الرقبة التى كان جسدها مختفيا أسفل سطح السفينة؟ وبالطريقة العاطفية التى ينظرها الايطاليون الى التاريخ من بعد شخصى ، فلابد وأنهم قالوا إن هذه ليست المرة الأول التى تظهر فيها الزرافة التى تحمل وجه ورقبة جمل ولها جسد فهد فى ميسينا . فقد جلب

يوليوس قيصر أول زرافة لأوروبا من مصر فى عهد كليوباترا سنة ٤٦ قبل الميلاد .

وحيث أنها عاشت بعد عملية النقل فلا بد وأن تلك الزرافة شأن زرافتنا قد وقعت بالأسر وهى فتية مما جعلها تتحمل عناء الرحلة النيلية الشاقة فى البداية ، وفى روما رافقت الزرافة موكب النصر لقيصر الذى ضم مئات من الأسود والفهود والنمور السوداء فى أقفاصها والحيوانات الغريبة والخطيرة مثل الرياح (السعدان) والقرد الأخضر وكلب الصيد السلوقى (أقدم حيوان يتم ترويضه فى العالم) والببغاء الصغير وطائر البشروش والنعام والعبيد والعاج والزمرد والذهب ، وأعداد غفيرة من الأفيال حاملة المشاعل وهى جميعا غنائم غزو أفريقيا التى سيذكرها التاريخ جيدا .

وبعد فترة وجيزة وفى ألعاب تدشين ساحة القيصر أهدى القيصر الزرافة لمواطنيه وتركهم ليستمتعوا بمنظر الأسود المثير وهى تلتهمها، وتدليلا على مدى ضخامة وجلال موكب عودة القيصر ذكر بلينوس الأصغر أنه تم التضحية بأربعمائة أسد فى ألعاب افتتاح الساحة، وشكك المؤرخ الرومانى ديون كاسيوس

قائلا « إن الناس تبالغ بصفة عامة فى مثل تلك الأمور .. لكننى سأتحدث عن الزرافة لأنها كانت أول زرافة تظهر فى روما » ..

وفى القرون التالية على القيصر جلبت مئات الزرافات الى روما لتقلى حتفها فى رياضة مصارعة الوحوش إما فى مجموعات صيد الوحوش الخاصة أو غالبا فى ساحة اللعب ولاحقا المدرج الرومانى (الذى قيل أن رمال أرضه تحولت يوم افتتاحه الى اللون الأحمر القانى خمسة آلاف حيوان معظمها من الأسود والدببة) .

ويعود أصل تلك الإثارة لعام ٢٧٥ قبل الميلاد عندما عادت الجيوش الرومانية الغازية لبيروس ملك إبيروس بـ ١٤٢ فيلا هى أول حيوانات غريبة تقع أسيرة للإمبراطورية الواسعة ، لم تكن روما قد شاهدت تلك الحيوانات من قبل لكن كان يخشى بأسها لسوء سمعتها بعد إجهازها على جنودها فى تارينتوم وهى إحدى معركتين مدمرتين حتى لبيروس ومنها أشتق وصف النصر البيروسى (*) .

وانتقاما من هذه المهانة حكم مجلس الشيوخ بإعدام جماعى للفيلة أمام سكان المدينة قاطبة ، ونتيجة لخوف وقلة خبرة القائمين

(*) يعنى النصر باهظ التكلفة (المترجم) .

بالإعدام الذين ظلوا على مسافة بعيدة برماحهم وسهامهم فقد انجزوا عملا مثيرا استغرق وقتا طويلا ..

ومع ظهور المسيحية بعد ثلاثة قرون تطورت تلك الاحتفالات الرهيبة للغزوات الإمبراطورية الى تسلية عامة وخاصة ، وفى حفلات السكر التى كان يقيمها الإمبراطور هيليوجابلوس كان يطلب من المدعوين إلقاء طيور التدرج (طائر بذيل شبيه بالحجل) لأسوده ، وتواصلت تلك الممارسات فيما قد يفيق المخمور الذى يغيب عن الوعى ليلاقى نفسه فى مواجهة المصير ذاته محبوسا فى غرفة واحدة مع أسد أو فهد أو دب . ومن الرعب وحده مات الكثيرون ، من السكارى الذين يستفيقون والصداع يفتك برؤوسهم ممن لم يشاطروا الإمبراطور مزاجه .

وجلب القيصر على نفسه ديونا شخصية باهظة وهو يمتع روما بألعاب الحيوانات العامة التى بات يتم توقعها كواجب مدني لأى مواطن يحتفل بنصر عسكرى كان أم مدنى . أما كاليجولا الذى عاصر المسيح وسرعان ما أصبح امبراطورا بعد صلبه فقد آثر مواءمة بين حيواناته والنظام العقابى من شأنها توفير التكلفة بإطعامه المجرمين للأسود / وكسادة لأراض مترامية الأطراف

متباينة الصفات أطلق الرومان العنان لمتعة المصارعة الوحشية بين حيوانات لم تكن لتواجه بعضها البعض فى البرية، ولطالما أحب جمهور الساحة المشهد الفكاهى للأسود تتدافع مثل القطط المنزلية الضخمة وراء الأرانب والببغاوات الصغيرة وقد نتفت أجنحتها وستجد الزرافة نفسها فى حلبة المصارعة فى مواجهة دب آسيوى أو تصارع ثورا من أيبيريا أو الأمبراطور نفسه غالبا . وأحصى جورديان الأول مائة زرافة بين قتلاه ، ومما عرفناه عن الزرافة وتنشئتها ما كانت أى من تلك الزرافات أو أى من الزرافات الأخرى منذ القيصر لتصل حية إلى روما إلا مدجنة أليفة يمكن الثقة بها .

وبعد أن سقطت الإمبراطوية الرومانية فى عصور الظلام السحيقة انقضت ألف عام قبل وصول أول وآخر زرافة إلى أوروبا . وأضفت الحملات الصليبية ضد الإسلام طابعا عالميا على الغرب وعندها وفى عام ١٤٨٦ أرسل سلطان مصر المملوكى قايتباى زرافة شابة إلى لورينزو دى مديتشى فى فلورنسا ،، لتوثيق العلاقات الطيبة مع المسيحيين ،، ورد لورينزو العظيم الهدية بدب شديد البياض كقلعته الرابضة عند مدخل ميناء الأسكندرية ذاك الأشم المواجه للبحر .

وذكر سان - هيلير أن زرافة لورينزو ،، كانت مرتبطة عاطفيا على الأقل بالروايات الخاصة ببيوت نبلاء المدينة « بالنوافذ التى، كانت تقصدها كل يوم لتتناول طعامها من أيدى سيدات فلورنسا ، اللائى اعتبرنها إبنة بالتبنى ، وكانت تلك الواجبات تتكون أساسا من أنواع مختلفة من الفاكهة ولا سيما التفاح .

وخلدت زرافة لورينزو فى اللوحات والرسومات الجصية كأول رسم من عصر النهضة لزرافة فى الحياة ، وسمى واحدا من المجاورات السبعة عشر لأطلال سيينا المجاورة بإسم الزرافة كونترادا ديلا جيرافا . واحتفل بها فريق قيادتها بمهاراتهم فى السباق عندما اختيروا من بين عشرة فرق للتنافس فى سباق الخيول السنوى المسمى باليو .

وفى عام ١٥٤٦ شاهد عالم الأحياء الطبيعية والرحالة الفرنسى بيير بيلون الزراف الأسير في مصر وعاد إلى أوربا بأول وصف علمى له : يقول فيه ، بكل تأكيد فإن الحكام العظام ، مهما كانت قسوتهم وتسلطهم يحبون أن تهدى إليهم حيوانات من الأراضى الأجنبية . لقد شاهدنا الكثير منها فى القلعة الملكية بالقاهرة حيث جلبت إليها من كل حدب وصوب : ومنها واحدة

اسمها الشائع بين العرب هو زورنابا وأسماها اللاتين قديما كاميليو بارداليس .. وهى حيوان بالغ الجمال وذو طبيعة على أقصى درجة من الحلاوة .. وأكثر ودا من أى حيوان برى آخر ،

«كان هذا أول ظهور مكتوب للفظ العربي الزرافة التى أخطأ بيلون فى نقلها ليحرفها إلى زور نابا لتصير فى الأسبانية الإسلامية والإيطالية والفرنسية (جيراف) . أما العربية واليونانية اللاتينية فيلتزمان معا - حيث يلتقي الشرق بالغرب - فى التوصيف العلمى لهذا الحيوان جيرافا كاميلوبارداليس .

الفصل التاسع
عبر مرسيليا الناعسة

كتب وزير الخارجية الفرنسي في باريس البارون داماس الى موظفة في مرسيليا في العاشر من اكتوبر ١٨٢٦ يقول « لو حدث ياسيد أن وجهت اليكم مباشرة شحنة أخرى بنفس الطبيعة كالأسد الذي أرسله إمبراطور المغرب إلى الملك فعليكم تسليمها فورا لأعلى سلطة إدارية محلية في مرسيليا ولسوف تواصل وزارتنا دفع النفقات التي تدفع خارج البلاد لكن مهمة وزارة الداخلية تتمثل في الإشراف على ما يحدث في فرنسا ومن الآن فصاعدا فعليكم ألا تشغلوا أنفسكم بها .

وأرسل هذا التوجيه من الوزير من باريس وتم تسلمه في مرسيليا بينما الزرافة لا تزال في عرض البحر. ولم يرد بالتوجيه ذكر خالص لزرافة الملك، لكن داماس رئيس دروفيتي كان على يقين تام أن تكلفتها باهظة وهي في الطريق قادمة من مصر .

وبعد أفريقيا والأجزاء المحيرة المفقودة من رحلة الزرافة عبر النيل غص أرشيف مرسيليا وليون وباريس بالكثير عن الزرافة في شكل رسائل رائعة وفواتير وكتابات الصحف المعاصرة حينذاك ، إنه لكشف مذهل .. وكأن شيئا ما ينسل من بين أوراق أشجار السنط وحقيقة كانت الزرافة كذلك . ومع ظهورها وثق للبشر أبطال روايتها وهم بشر كلهم فتنة وسحر بخلافاتهم الرسمية وقلقهم المشترك عليها حتى السنتيم الواحد .

وفى القرن الثامن عشر وعلى مدى عامين فقط أتى الطاعون على خمسين ألف نسمة من سكان مرسيليا التسعين ألفا. استشرى الوباء كالنار وكان مدمرا لدرجة باتت تعرف المدينة معها (بمدينة الموتى) . وترتب على هذا أن احتفظ الميناء بحجر صحي ضخم وفعال توسع زمن الزرافة للتعامل مع الحمي الصفراء التى انتشرت من أمريكا الجنوبية إلى أسبانيا . وصدرت الأوامر الى السفن بالرسو بين جزيرتي بوميكية ورانو وعلى بعد ثلاثة أميال قبالة البر الفرنسي .

وسمي الحجر الصحي البحرى الجديد «منة الله» ، تكريما لحفيد الملك شارل العاشر الذى أطلق عليه هذا الإسم ولد بعد سبعة أشهر من اغتيال والده دوق بيرى ولدى الوصول إلى هناك كان الركاب يحتجزون إما فى المنشآت الطيبة في راتو نو -

المجمع الصحى لمرسيليا أو يغادرون السفن ليستقلوا زوارق تنقلهم إلى منشآت الحجر الصحى الموجودة على البر خارج المدينة (لازاريتو) وفى مايو ١٨٢٦ أى قبل وصول الزرافة بستة أشهر الى مرسيليا غادر السفينة كافة أعضاء الوفد الرسمى الكبير الذى ضم رفاعة الطهطاوى وكان يتألف من ٥٤ راكبا تركيا منهم أربعون شابا سافروا لتلقي العلم فى باريس تاركين القط البرى والببغاء المجلوب من اليمن على متن السفينة لا ترويت وأمضوا أيام الحجر الصحى الثمانية عشر فى اللازاريتو .

ووصف الطهطاوي اللازاريتو فى مرسيليا بأنه « فسيح» . بالقول :

ثم إن هذا البيت الذى كنا فيه (للكرنتيتة) متسع جدا به القصور والحدائق والبناء المحكم ، فيه عرفنا كيفية إحكام أبنية هذه البلاد واتقانها ، وامتلاءها بالرياض والحياض .. إلى آخره

ولم نشعر فى أول يوم إلا وقد حصل لنا أمور غريبة فى غالبها، وذلك أنهم احضروا لنا عدة خدم فرنساوية ، لا نعرف لغاتهم ونحو مائة كرسى للجلوس عليها ، لأن هذه البلاد يستغربون جلوس الإنسان على

نحو سجادة مفروشة على الأرض فضلا عن الجلوس بالأرض . ثم مدوا السفرة للفطور ، ثم جاء وا بطبليات عالية ثم رصوها من الصحون البيضاء الشهية بالعجمية، وجعلوا قدام كل صحن قدحا من (القزاز) وسكينا ، وشوكة وملعقة ، وفى كل طبلية نحو قزازتين من الماء وإناء فيه ملح وآخر فيه فلفل ، ثم رصوا حول الطبلية كراسى، لكل واحد كرسى ، ثم جاء وا بالطبيخ فوضعوا فى كل طبلية صحنا كبيرا أو صحنين ، ليغرف أحد أهل الطبلية ، ويقسم على الجميع فيعطى لكل إنسان فى صحنه شيئا يقطعه بالسكين التى قدامه ، ثم يوصله الى فمه بالشوكة لا بيده، فلا يأكل الإنسان بيده أصلا ، ولا بشوكة غيره أو سكينته أو يشرب من قدحه أبدا، ويزعمون أن هذا أنظف وأسلم عاقبة .

ومع هذا ظلت الحيوانات ورعاتها على السفينة بينما كانت الأوراق تروح جيئة وذهابا لتحديد المسئول عن نفقاتها وهى فى الحجر البيطرى . والآن وبعد أن رفض وزير الخارجية رفضا قاطعا دفع ثمن أى شىء بمجرد أن وطأت الحيوانات داخل

فرنسا فقد اضطرت حتى زرافة الملك – وخاصة زرافة الملك – لانتظار الايضاح ، كان مسئولو الجمارك وفى مطالبات رسمية بيروقراطية منمقة لا يزالون يطالبون وعلى مدى ثلاثة أشهر حاكم مرسيليا حاكم مرسيليا الكونت فيلنيف بارجمون بثمن ثلاثة أرطال يوميا من اللحم ومواد أخرى قدمت لمدة شهرين للقط البرى لكن حديقة حيوان باريس توقفت عن تسديدها منذ شهر يونيو ..

(كان هذا التعريف الغامض «للقط البرى» يعطى مؤشرا جيدا لمدى حداثة عهد الأوروبيين بتلك الحيوانات. أما هدية والى مصر فقد عرفت هى الأخرى بأنها «نمر أفريقى»، وكانت «هى أسد وزير الخارجية المهدى من إمبراطور المغرب»، وحتى سان – هيلير وموظفو حديقة الحيوان الذين كانوا ينتظرونها فى باريس اضطروا لتخمين تعليمات أكل الحيوانات لحاكم مرسيليا. (وتقول... إذاكان حجم الحيوان لايزيد على حجم القط المحلى فيكفى رطل واحد (نصف كيلو) يوميا. أما إذا كان فى حجم الثعلب فمن الضرورى إطعامه برطلين ولو كان فى حجم ذئب فلا داعى أن يزيد ما يأكله على ثلاثة أو أربعة أرطال). ويوم الاثنين الثالث والعشرين من أكتوبر ١٨٢٦ وصلت السفينة آى فراتيللى قبالة سواحل مرسيليا

بعد رحلة بحرية إستغرقت خمسة وعشرين يوما، لكن وحتى يوم الجمعة السابع والعشرين من أكتوبر لم يكن «الموظفون الثمانية بإدارة الصحة العامة» قد وقعوا جميعا خطابهم إلى حاكم مرسيليا: وجاء فيها يشرفنا إبلاغكم أن القبطان منارا قد وصل قادما من الإسكندرية، تقل سفينته زرافة وحيوانات أخرى خاصة بالملك. وبما أنه سيتم إنزالها من دون إبطاء من المركب ونقلها إلى الحجر البيطرى (ونظرا لأن) وجودها فى الحجر البيطرى سيؤدى إلى إرتفاع تكاليف إطعامها وخلافه (وحيث أن الموظف المحلى لوزارة الخارجية) ليس مفوضا على الإطلاق بدفع التكاليف فإننا نتوسل إليك إخطارنا بما إذا كنتم تفوضوننا فى دفع التكاليف كما حدث فى مناسبة مماثلة.

ومع هذا فقد كان حاكم مرسيليا قد تلقى إخطارا بوصول الزرافة من موظف وزارة الخارجية المحلى. كان هذا الرجل قد وقع على المسألة لإنهائها بإرفاق مذكرته بنسخة من رسالة دروفيتى الخاصة (بالملاحظات) اللازمة للحفاظ على حياتها وتوجيه وزارة الخارجية برفض تسديد تكاليفها.

ولم يتكرم الكونت فيلنيف - بارجمون وهو أول بطلين عظيمين في حياة الزرافة في فرنسا والذى إرتبط بها لدرجة أنه أفضى لسان - هيلير بأنها (إبنتنا بالتبنى) بذكر أى شىء عن المال عندما رد على موظفى إدارة الصحة العامة. وتحول قلق دورفيتى ليصبح تعليمـات فعلية من حـاكم مرسيليا واختتم تلك التعليمـات بطلبـه، «أرجو إبلاغى فى حالة وقوع أى حادث ولو بسيط لتلك الحيوانات. وحرصا على توفير الرعاية لها فقد تقرر تعيين السائس والخادم الزنجي السابق لقنصل فرنسا. ومن المهم إستمرار رعايتهم».

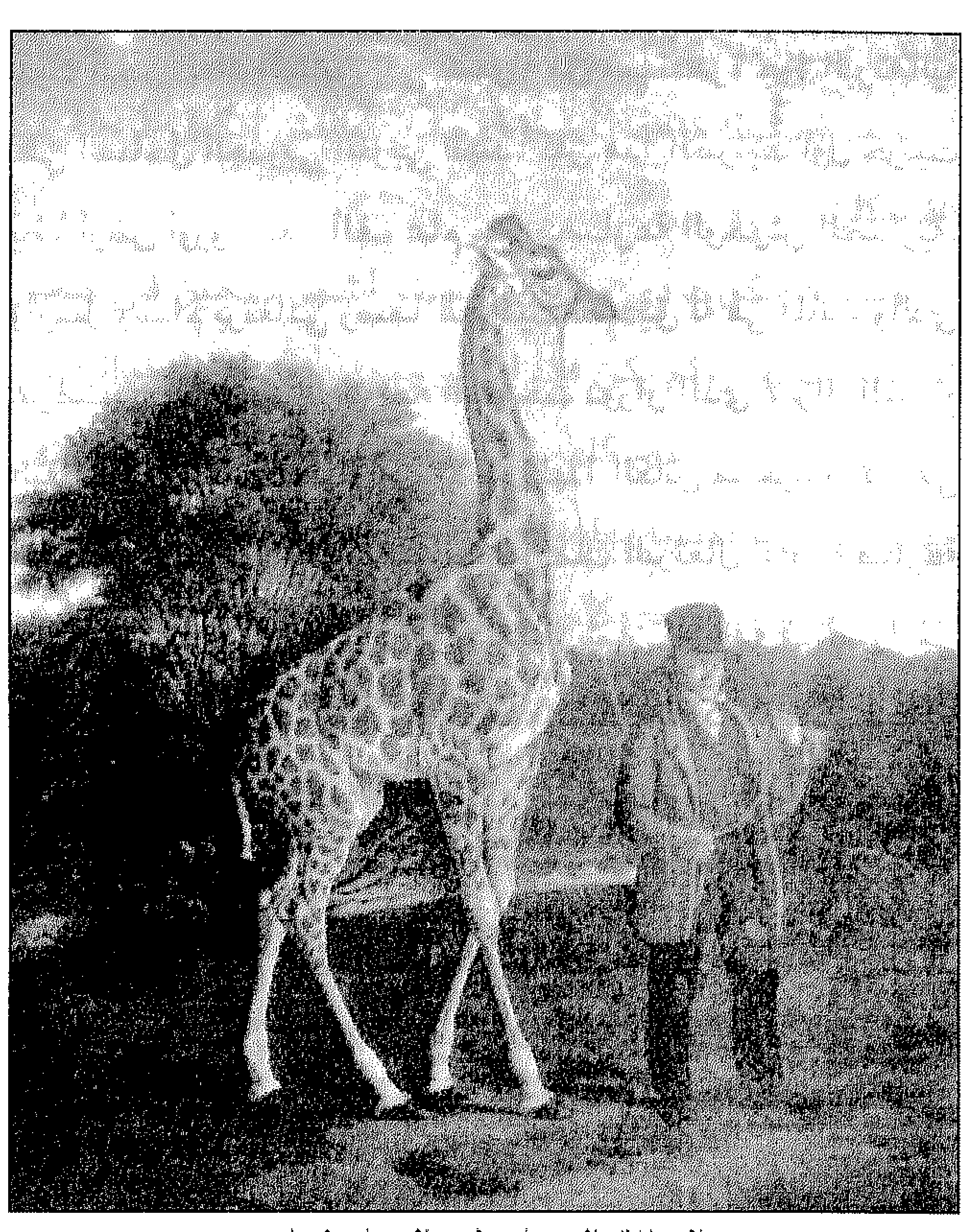
وفى الخريف تتحول الجزر الطباشيرية التى تضم مجمع الحجر الصحى من حالتها الصلبة إلى أرض جرداء قفر باردة مع برودة الرياح المستمرة. وتتلاشى آخر الزهور البرية وآثار الصيف. ولاتزال شجيرات أكليل الجبل المتوقفة عن النمو عالقة بالجروف الناتئة والسهوب الحصباء.

وتجلس أسراب النورس القرفصاء وسط زراعات متناثرة من نبات القتاد وأوراقه التى تنمو على الجذوع تتحول إلى أشواك

تخترق الكاحل. وعندماتصبح عرضة للتهديد تتراجع عند الإقتراب منها دونما أدنى رغبة فى الطيران.

وتحتضن أصغر جزر هذا الأرخبيل وهى جزيرة إيف واحدا من أشهر السجون التى تفوق الوصف. فقبل ثلثمائة عام من الوقت الذى أمضته الزرافة وحسن وعطير راسيين بالقرب منها بسبب الإجراءات البيروقراطية بنى فرانسيس الأول حصن دى إيف كحصن متقدم للدفاع عن مرسيليا. كان الملك الشاب قد رأى الجزيرة عام ١٥١٦ فى طريق عودته إلى بلاده من غزوه لمملكة ميلانو. ولتكريمه نظمت مرسيليا معركة حربية وهمية تبادلت فيها السفن زخات البرتقال لا الرصاص. ووصف بول ديلاليه تلك المهرجانات بقوله: «هب الملك ليشارك فى المعركة التى كانت بالنسبة له، مجرد حفل شأن كل المعارك. كان يضحك وهو يقذف بحبات البرتقال .. ويضحك وهو يتلقى على صدره الثمرات الناضجة، تلك القذائف الذهبية التى كانت تنفجر فوق الصديرى الحريرى الذى يرتديه ناقشة عليه علامات جراح وردية».

وبينما كان فرانسيس الأول موجودا فى مرسيليا رست سفينة قبالة الجزر تحمل خرتيتا هنديا فى طريقه هدية ملكية من ملك



الزرافة التي أرسلت إلى انجلترا

البرتغال إلى البابا فى روما. كان الخرتيت متمرسا على السفر حيث أبحر العام السابق إلى لشبونة من مستعمرة جوا البرتغالية على الساحل الجنوبى الغربى للهند. كان هذا الخرتيت أول خرتيت يطأ أرض أوروبا بعد ألف عام منذ مصارعة الوحوش الضارية. وأرسل رسام برتغالى رسما للخرتيت لصديق له فى ألمانيا والذى عرضها بدوره على العلامة البريخت دورار الذى لاتزال النسخ التفصيلية المتقنة المنقولة عن الأصل لهذا الكائن محفوظة الآن فى المتحف البريطانى. وفى لشبونة حاول ملك البرتغال إقامة مصارعة بين الخرتيت وفيل - ولابد وأن كليهما شأن الزرافة قد أسرا فى سن مبكرة كانت تكفى لترويضهما وتنشئتهما كحيوانات أليفة - لكن الفزع تملك الفيل لدى رؤيته الخرتيت وفر هاربا محطما بوابات الحلبة.

وفى مرسيليا أنزل الخرتيت لإشباع فضول فرانسيس الأول حسبما تقول الأسطورة الشائعة فى جزيرة إيف حيث بنى الملك لاحقا الحصن الخفيض الذى تحول إلى سجن. ولدى إبحارها صوب إيطاليا غرقت السفينة التى كانت تقل الخرتيت بسبب عاصفة عاتية فى خليج جنوة وكان من المفترض أن هذا الكائن

التعس الذى خلده التاريخ قد غرق حتى طفت جثته على الساحل الليجورى.

وبعد انتشاله نزعت أحشاؤه وحشيي بالقش ليكمل الرحلة إلى الفاتيكان.

وشارك الكونت دى مونت كريستو أشهر سجين فى حصن إيف أغرب جار ولم يكن هذا الجار سوى جثمان الجنرال جان باتيست - كليبر الذى كلفه نابليون بقيادة الجيش الفرنسى فى مصر إثر تركه لجيشه بها. وبعد إغتيال كليبر فى القاهرة فى يوليو ١٨٠٠ انتظر جثمانه أكثر من عام حتى إعادته إلى فرنسا مع القوات الفرنسية. وفى مرسيليا وفيما كانت رفات قاتله فى طريقها إلى المتحف الوطنى للتاريخ الطبيعى فى باريس أنزل تابوت كليبر لنقله إلى مسقط رأسه فى ستراسبورج. لكن وبفضل العداء بين الجنرال ونابليون (الذى فاقمة من جانب نابليون حقيقة أن كليبر كان أكثر منه طولا) احتجز الجثمان فى حصن دى إيف وظل نسيا منسيا هناك لنحو سبعة عشر عاما.

وشهد يوم الثلاثاء ٣١ أكتوبر ١٨٢٦ أول موطىء قدم للزرافة فى فرنسا. وأستؤجر الصيادون واستخدم قاربهم المرة تلو الأخرى

فى نقل الزرافة والظبيان والبقرات الثلاث الحلوب وحصانا، الجنرال بوابيه من السفينة آى دوى فراتيللى إلى اللازاريتو خارج مرسيليا، واشتملت فاتورة العملية على إيجار القارب لمدة يومين إضافة إلى تكاليف إبرة (مسلة) وخيط وشريط قياس وثمانية وأربعين طولا من القماش ذى المربعات لصنع ملاءات للزرافة واثنتين للظبيين».

وتسجل فواتير أخرى أن حسن وعطير أعطيا قنديلا وزيت إضاءة وخشبا للتدفئة وأطعما لمدة خمسة عشر يوما على نقيض رواية الطهطاوى عن رفاهية الحجر الصحى. «وجف ضرع» واحدة من البقرات الثلاث أثناء الرحلة وهكذا تم الترتيب لزيادة كمية الطعام من العلف وتم فرش تبن على الأرضية بناء على الطلب الملح لدروفيتى فى كل مرة لتلبية الإحتياجات اليومية للزرافة. وقامَ بَنَاءٌ وعمال بطلاء الجدران، وعُيّنَ حارس.

وفى الوقت نفسه أخذ حاكم مرسيليا بزمام المبادرة وقام حتى قبل إحاطة وزير الداخلية فى باريس علما ببناء اسطبل لإيواء الحيوانات بساحة ضيعته. وفى رسالته المطولة والمفصلة إلى الوزير التى سعى فيها إلى «الحصول على العليمات بأسرع ما

يمكن» وطلب فيها أيضا تذكير حديقة حيوان باريس بديونها التى لم تدفع مقابل رعاية القط البرى، وحدد أخيرا حاجته المالية فى صورة تذييل يتلاءم تماما مع ضمير الإنسان اليقظ.

يمكنكم أن تطمئنوا مسئولى حديقة الحيوان بشأن الرعاية الخاصة التى أوليها للحفاظ على تلك الحيوانات الثمينة، لقد ضمنت بنفسى بالفعل وجود مكان تكسوه الخضرة الوارفة يتاح فيه التعرض لضوء النهار، إننى أقوم هناك ببناء سقيفة من الألواح الخشبية سنقوم بتدفئتها بأرضية من القش للحماية من البرد القارس للموسم. وسيستلزم هذا البناء تكبد نفقات كما أنه ضرورى لإيواء هذا الحيوان والبقرات اللائى يرافقنه ويوفرن له المأكل، ويجب أيضا توفير وسائل الحياة اليومة لرعاتها. وسيتم تقديم مختلف السلفيات وبكل الإقتصاد الممكن لكن من الضرورى أن تسمحوا لى بالأموال.

وأضاف فى تذييل ثان للرسالة: ««إن إبن أخ السيد دروفيتى ذكر لتوه أن منشآت الحجر الصحى تناسب تماما رعاية الحيوانات»».

وفى العاشر من نوفمبر تلقى حاكم مرسيليا إخطارا مكتوبا بخط اليد من موظفى إدارة الصحة العامة منمقا على النحو التالى: نعتقد أنكم تودون معرفة يوم خروج الزرافة والحيوانات الأخرى المتجهة للإنضمام إلى مجموعة حيوانات الملك، ويشرفنا أن نبلغكم بأنه سيتم اتخاذ إجراءات خروجها يوم السبت الحادى عشر من نوفمبر».

ومع هذا لم تكن «سقيفة حاكم مرسيليا الواسعة» قد اكتملت وهكذا اضطرت الزرافة والظبيان للإنتظار فى اللازاريتو يكتسيان بالملاءات المربعة حتى يوم الثلاثاء. وحتى ذلك اليوم أجج حجم السقيفة وسرعة بنائها الشائعة عن قرب وصول حيوان عملاق خطير إلى المدينة.

ولإنقاذ الزرافة من الترويع الذى قد تسببه الجماهير المحتم تدفقها لمشاهدتها أصدر حاكم مرسيليا أوامره بنقل البقرات الحلوب والظبى من اللازاريتو أثناء النهار من دون الزرافة. وفى الرابع عشر من نوفمبر ١٨٢٦ أقتيدت البقرات الغريبة عبر الشوارع والحشود تتابعها حتى ساحة قصر حاكم مرسيليا فيما الظبيان الواهنان قدما استعراضا مقنعا من الشراسة. وإنتهى

العرض وتفرقت الحشود راضية مستمتعة مرتاحة. وحل ظلام الليل المبكر في الخريف في الساعة الخامسة.

وفي وقت لاحق من تلك الليلة فيما بين العاشرة والحادية عشرة غادرت الزرافة اللازاريتو مع حسن وعطير تحت حراسة مشددة لم تحددها السجلات لكن يفترض أنها بقوة مفرزة من جنود الدرك. وجفلت الخيول من الزرافة لكنها سارت بهدوء خلف واحد منها وحسن وعطير يقودانها «عبر مرسيليا الناعسة».

كانت أضواء المصابيح التي تعلو قامتها ووقع الخطى على أرض الشارع شيئا جديدا بالنسبة لها. وعند ممر ضيق وعندما توارى الحصان الذي يتقدمها عن ناظرها توقفت الزرافة فجأة رافضة التحرك في أي إتجاه حتى عاود الحصان الظهور. ووصف السيد سالزمن الأكاديمية العلمية ما حدث على النحو الآتي:

وبمجرد أن رأت الزرافة الحصان الذي توارى عن ناظريها طابت نفسها وسارت خلفه عن قرب لصيق وكذلك كان العرب الذين اقتادوها بأربعة حبال، لكن الحصان لم يكن سلسا، فقد واجه قائده صعوبة جمة في كبحه ولم يكن ليتسامح مع تقدم الزرافة من وقت لآخر لتتشمم كفله. وفي مشوارها تعين عليها أن

تجتاز عدة أماكن عامة ودائما ماكانت تثب فى محاولة للوصول إلى فروع الأشجار القريبة دون أن يغيب الحصان الذى إتخذته دليلا عن ناظريها وأقتفت أثره حتى الاسطبل الذى كان وجهتها.

وبوسع المرء القول إنه ليس هناك شىء أكثر من رائع أو شائن فى تفاصيل شكلها، فالجسد قصير والأرجل طويلة مضمومة والرقبة مفرطة فى الطول والظهر منحدر والكفل شديد الإستدارة والذيل طويل أجرد. وتتضارب كل تلك الملامح بطريقة صادمة، فالبنيان يبدو رديئا غير متوازن عند الإقدام، وتتملك الدهشة أحدهم من رؤيتها ويرى آخر أنها جميلة دونما قدرة على الإفصاح عن السبب.

الفصل العاشر

سهرة على شرف الزرافة

عند وصول الزرافة لم تكن أوروبا قد شاهدت زرافة حية على مدى قرابة ٣٥٠ عاما. كان المتحف الوطنى للتاريخ الطبيعي فى باريس قد تلقى فى وقت سابق جلد زرافة موضوع فى الملح لكن حالته كانت متدهورة للغاية لدرجة لم يستطع العلماء معها إيجاد طريقة لتجميع أجزائه. وفى عصر الفضول، عندما يصبح كل شيء جديدا لبرهة بإيجاز وعندما وبفضل العلم وسلام ما بعد الحقبة النابليونية إستغرقت أوروبا المتقدمة نفسها فى عجب إثر عجب فيما يبدو الآن وكأنه طفولة جماعية ثانية، كانت الزرافة إثارة منقطعة النظير.

وحِجَبتْ الزرافة فى الأماكن المعدة لحمايتها فى فصل الشتاء وبنيت خصيصا من أجلها وحلت ضيفا غاليا على حاكم مرسيليا وزوجته (التى أهداها نائب القنصل دروفيتى بالقاهرة الببغاء الذى

كان يرافق القط البرى). واستقر الظبيان (الطويلان) فى ذات البقعة الخضراء المشمسة التى اختارها حاكم مرسيليا بنفسه فى ساحة ضيعة. وضم الاسطبل أيضا البقرات الحلوب التى أصبحت الآن أربعا الآن بعد أن جف ضرع إحدى البقرات المصريات. وفصل جدار الحصانين القويين عن الزرافة.

كان الاسطبل الذى صمم وفقا لتعليمات دروفيتى مقابل المواقد وأنابيب المواقد جيد الإضاءة بفضل نافذتين وباب زجاجى كبير وطلب الاكتفاء بحرارة أجسام الحيوانات لتدفئة المكان.

كان كلافون يتولون عملية الحلب. وركبت أطواق ومقاود للأبقار حتى يمكن ربطها بساحة دار الحاكم ثم لتسحب لاحقا عند دفء درجة الحرارة لترافق الزرافة عبر الريف الفرنسى. وركب للزرافة أيضا طوق جديد ومقودان «كبيران مضاعفان فى طولهما» من الحبال بيد حسن وعطير حتى يمكنهما الإشراف على نزهتها، وإلى أن عاشت بمفردها مع عطير في باريس كان يسيرها فريق من أربعة رجال على الأقل وستة رعاة.

وأمضى حسن وعطير «المصريان» فصل الشتاء مع الحيوانات فى الاسطبل. كان حاكم مرسيليا قد أصدر أوامره بنقل

متعلقاتهما من اللازاريتو مع بقايا التبن والحبوب بعد الخمسة عشر يوما فى الحجر الصحي. واستعيرت لهما أسرة عسكرية بفرشها من حامية محلية (ولاثنين آخرين مجهولين من العرب لم يرد أى ذكر لهما مطلقا فى سجلات اللازاريتو واكتفى بتعريفهما فى إشارات متفرقة «إثنان من الأربعة» الذين رافقوا الحيوانات وسرعان ما عادا إلى بلادهم «وزودا بمصباحين جديدين وزيت وقود. وأثناء وجودهما فى مرسيليا كان حسين وعطير يحصلان على «مقنن يومى» بما فى ذلك الطعام حددته الفواتير ٤٦.٥٠ فرنك فرنسى شهريا. وفى مرسيليا وفى الطريق إلى باريس كانا يتلقيان راتبا شهريا» للراعى العربى بواقع ٣٠ فرنكا ولمساعدة الزنجى بواقع ٢٠ فرنكا». وكان يدفع ما يعادل نفس راتب حسن للكلاف مقابل عملية الحلب أى ما يكاد يساوى خمسة دولارات بسعر ذلك الزمان شهريا.

وتأهب السيد سالز وزملاؤه العلماء فى أكاديمية مرسيليا على الفور للشروع فى دراسة «زرافتنا الشابة» من رأسها حتى برازها. وعمل إبن أخ دروفيتي مترجما لحواراتهم مع حسن وعطير. وتلقى حاكم مرسيليا الفواتير النهائى لرعاية الزرافة

وحاشيتها فى اللازاريتو من ثلاث نسخ مرفقة برسالة مذيلة بما يلى: «ننتهز هذه المناسبة لتذكيركم بأننا لم نحصل حتى الآن على الإطلاق على النفقات التى أنفقت على . القط البرى».

وبعد أربعة أيام من توليه رعاية الزرافة أبلغ حاكم مرسيليا وزير الداخلية فى باريس بالآتى:

إن الزرافة هى الأروع جمالا من نوعها ولقد بدأت بداية طيبة فى اللازاريتو لتستعيد حيويتها الأولى التى كانت رحلتها فى البحر قد نالت منها إلى حد ما.. إنها أنثى بمعنى الكلمة. ويبلغ طولها من قمة رأسها أحد عشر قدما وربع القدم (لكن سالز حدد طولها الذى قيس من الأرض بالبول. «وحدة قياس تساوى ٥ ياردات ونصف» بأحد عشر قدما وست بوصات).. لقد اتخذت جميع التدابير مهما كانت قسوتها للحفاظ (عليها).. وتحت عينى فبوسعى الإشراف بنفسى كل دقيقة على كل شاردة وواردة وأستطيع إقتصاد النفقات الباهظة (لوضعها والحيوانات الأخرى) فى مكان آخر.

ووصفت تقارير ذلك الزمان الزرافة «بالمصرية الجميلة» و«بالأفريقية الجميلة» و«ابنة المناطق المدارية». وتهافت كل سكان

مرسيليا على رؤيتها. وفى البداية حد حاكم مرسيليا من الوصول إلى الزرافة فيماكان سالز والعلماء يقومون بمعاينتها: «إنها تحب مغادرة الأسطبل كثيرا وعندما تتجول فى حديقة ضيعة حاكم مرسيليا فى الأيام التى يتحسن فيها الطقس تبدو كما لو كانت حصانا شابا.. وأحيانا ما تريد إطلاق العنان لنفسها فى العدو ساحبة معها العرب الأربعة الذين يكبحونها «لقد شاهدناها فى لحظة مرح تجر خمسة رجال أشداء».

وفى ٢٨ نوفمبر ١٨٢٦ كتب، أساتذة وإداريو المتحف الوطنى للتاريخ الطبيعى فى باريس والذى كانت الحيوانات الملكية جزءاً منه فى إمتنان وفضول بالغين لحاكم مرسيليا:

إن الحيوان الذى أرسله باشا مصر إلى الملك واحد من أسعد ما استطعنا أن نحوزه - فلم تصل زرافة حية إلى فرنسا قط، فلثمانية عشر قرنا. لم تر أوروبا المتحضرة واحدة منها، (وعلى نقيض زميلهم سان - هيلير لم يكن كاتبو هذه الرسالة يعلمون أن زرافة أخرى كانت قد أرسلت إلى فلورسنا فى القرن الخامس عشر).. وليست لدينا أى معلومات على الإطلاق عن حالة هذا الكائن الثمين، ولا ندرى ما إذا كان شابا أم بالغا كبيرا أم

صغيرا واهنا أم موفور الصحة بريا أم أليفا.. إلخ، إلخ. إننا نتوسل إليك أن تزودنا بكلمة مكتوبة عن مختلف تلك النقاط ولو حدث وتهددت تلك (الزرافة) بالفناء فنرجو إعداد رسم ملون لها يوضح لنا على وجه الدقة تكوينها وشكل الرأس من الأمام والزاوية وأن يكون هذا مع هيكلها العظمى وجلدها ليكون بمثابة تعويض بسيط لنا لو حدث وساء حظنا وفقدنا (الزرافة) قبل وصولها إلى باريس.

كان الشتاء قاسيا على غير العادة في جنوب فرنسا. وكابد الظبيان في إقامتهما، وأصبح الذكر أكثر شراسة يمثل خطرا على الأنثى وإزداد وزن الأنثى.

لكن الزرافة ترعرعت. وقبيل أيام قلائل من عيد ميلا السيد المسيح أتم سالز تقرير «الملاحظات الخاص بالزرافة» المؤلف من ست عشرة صفحة وأورد فيه أن الزرافة موفورة الصحة ومرحة وقوية لكنها تلزم الصمت التام.

إن طباع الزرافة غاية في الرقة ولم تر مطلقا تبدى أدنى بادرة عن الغضب أو الرغبة في إيذاء الآخرين. ودائما ما تميز العرب الذين يطعمونها لكنها لا تختصهم بمشاعر شديدة الخصوصية.

وهى تسمح بالاقتراب منها لكل من يريد، غير أنها لا تحب أن يلمسها أحد وفقط عندما تخاف شيئا ما أو تتعرض لإزعاج شديد فإنها تلجأ للدفاع عن عن نفسها برفس أمامى إما برجلها الأمامية أو الخلفية. وهى لا تحاول مطلقا الضرب برأسها أو قرنيها، وعلى النقيض فإن المرء يلاحظ أنها دائما ما تبقى رأسها عالية عندما يزعجها أو يخيفها أحد. وغالبا ما تلعق وجه وأيدى وثياب العرب الذين يرعونها. وأحيانا ما تلعق الغرباء وتتشمم البشر الذين يقتربون منها. وهى تبدو وجلة من الضوضاء وأكثر إحساسا بها: ومع هذا فلا يخيفها وجود عدد كبير من البشر الذين يقتربون منها للغاية. (ومع هذا فإنها خجولة وخجلها هذا يجعلها تتمنع عن شرب اللبن أمام الغرباء). ودفع تمازج مثل تلك الصفات التشريحية المتناقضة للزرافة سالز إلى تأملها كنوع من المجموعات الحيوانية المتباينة. متسائلاً إذا كانت هى وأنواعها مجرد إستثناء غير عادى للطبيعة. وأضفى ود الزرافة للبشر غموضا على غموضها. وانعكست مرارة غربتها فى لطف إهتمامها الودود غير المتبادل مع الحيوانات الأخرى - فقد كانت الخيول

تخافها ولم تكن البقرات الحلوب التى تتبعها الزرافة فى كل مكان تبالى بها.

وفى ذلك الحين بدأ حاكم مرسيليا وزوجته فى ترتيب حفلات عشاء صغيرة منتقاة - فى شكل أمسيات على شرف الزرافة كان أكثرها إثارة عندما إرتدى ضيوفهما الكبار ملابس ثقيلة لإتقاء البرد والمطر وريح المسترال الشمالية الباردة وساروا على ضوء المصابيح عبر الحدائق حتى الاسطبل ليحظوا بشرف لقاء الزرافة.

ولك أن تتصور لوحة تضم عوالم و(ألوانا) متباينة تلتقى هنا تحت أضواء خافتة: رحالة أصحاب مقامات رفيعة وأثرياء البورجوازية الجدد والأرستقراط الذين أفلتت عائلاتهم بدرجة أو بأخرى من الثورة ونابليون والنساء يرفلن فى الحرير ويتحررن منها فى عبق الدفء، وهم جميعا يقدمون الاحترام الواجب للزرافة المدللة وللظبيين المشاكسين ولبقراتها الحلوب وللبدوى حسن والأسمر عطير وهما يرتديان الجلباب والعمامة. وكانت كل أمسية تمثل واجهات عرض ثرية تنبض بالحياة.

وبينما افتتن الأوروبيون بالزرافة فقد افتتن المسلمون بالنساء السافرات. ولم يكد الطهطاوى يصدق عينيه وأحس الطهطاوى

بحق بغصة لمرأى نساء مرسيليا السافرات ليصفهن: «وعادة نساء هذه البلاد: كشف الوجه والرأس والنحر، وما تحته، والقفا، وما تحته، واليدين إلى قرب المكنبين.

والعادة أيضا أن البيع والشراء بالأصالة للنساء، وأما الأشغال فهى للرجال، فكان بالدكاكين والقهاوى ونحوها فرجة عليها، وعلى ما يعمرها. وهكذا كان الأثر الاستثنائى للزرافة الذى ختم به سالز «ملاحظاته العلمية عن الزرافة» كرجل متيم بامرأة بقوله: تجدر الإشارة إلى أنه وبعد التأمل الدقيق للزرافة لا يبقى للمرء مع هذا سوى ذكرى غامضة عن شكلها وقوامها. فهذا على ما أعتقد السبب الذى يدفع الناس بشكل عام إلى رؤيتها مرارا وفى كل مرة تثير بعض الملاحظات الجديدة».

وفى حاشية أخرى أضاف سالز أن طول الزرافة زاد بواقع بوصة ونصف خلال الخمسة وثلاثين يوما التى مضت على تركها للازاريتو.

وقبل خمسة أيام من حلول العام الجديد ١٨٢٧ أشار حاكم مرسيليا وهو يرسل أول فواتير نفقاتها إلى أساتذة وإدارى المتحف الوطنى للتاريخ الطبيعى إلى أن «الزرافة فى أفضل

حالتها». كان بيروقراطيا حاذقا لدرجة أنه ضمنها تفاصيل الملاحظات والرسم الذى أعده سالز للزرافة «بحماس منقطع النظير».

وتطرقا لموضوع المستقبل» نقل الحيوانات، إلى باريس نصح بعدم سلوك رحلة الأطلنطى الطويلة عبر جبل طارق والدوران حول أسبانيا وصولا إلى ميناء لوهافر الشمالى لأنها ستكون بكل تأكيد رحلة محفوفة بالمخاطر وقد لا تنتهى بنفس النهاية السعيدة للزرافة التى قدمت من الاسكندرية. ولم يدر بخلده مطلقا أنها يمكن أن تتجه شمالا عن طريق البر ليس فقط بسبب المتطلبات البدنية التى تقتضيها الرحلة والآثار التى ستتركها عليها بل أيضا بسبب» الحوادث الكثيرة والعقبات التى قد تواجهها (مثل حوادث المركبات على الطرق) وحشود المتطفلين». ولذا فقد أوصى بنقل الحيوانات بالزوارق حتى الرون.

وفى ردهم لم يتطرق الأساتذة - والإداريون لمناقشة مقترحات حاكم مرسيليا لكنهم فتنوا بامتنان من العمل الذى أنجزه سالز والأثر الذى تركه على وزير الداخلية الذى كانوا يعملون تحت سلطته المالية: «فالتقرير يتضمن تفاصيل لافتة وملاحظات دقيقة

وتبدو الملاحظات الجديدة عظيمة القيمة لنا للفت انتباه الوزير. إننا نرنو أيضا لعرض الرسم المرفق عليه لإعطائه فكرة عن الطبيعة الفريدة لهذا الحيوان. ونرجو أن تتقبل سيدى شكرنا الخاص على هذا الإتصال لكن لا يسعنا الختام دون الإعراب لكم عن شكرنا جميعا عما فعلتموه واقترحتم عمله فى هذه المسألة لصالح العلم والمتحف.

وشأن دوروفيتى (وحاكم مرسيليا وسالز) وزيرالداخلية مفتونا بالزرافة ولم تعد نفقاتها تمثل أى مشكلة على الإطلاق.

ومع أواخر فبراير تحولت النزهة اليومية للزرافة إلى حدث عام. وعند الظهر وعندما يتحسن الطقس كانت أبواب قصر حاكم مرسيليا تفتح. ويحضر الرعاة بقراتهم الحلوب بمقودها . وكانت الزرافة تقتفى أثر البقرات الحلوب يحيطها رعاتها الستة. ومع دفء حرارة الجو طالت النزهة لساعة خارج المدينة والعودة منها. وفى الثالث من مارس وبعد أن إرتبكت نزهتها، نتيجة حشود المتفرجين الفضوليين الذين حالوا دائما دون الحفاظ على سير النظام بشكل طيب «كتب حاكم المدينة إلى قائد الشرطة يطلب منه من الآن فصاعدا تعيين حراسة من إثنين من حرس الدرك».

وكان يتم التنبيه على قادة المركبات على طول الطريق سلفا قبل سير الزرافة. ولم تقع سوى حادثة واحدة بعد أن فزع قطيع من الحيوانات لرؤيتها. وجرح بغل وتلفت مركبتان لم يرفع الحاكم أمرهم للمسئولين فى باريس حتى إنتهاء الحساب فى شهر يونيو عندما قرر بأريحيته ورقته المعهودة ضرورة دفع تعويضات - رغم أنها ليست ملزمة حيث صدرت التنبيهات للسائقين سلفا - حتى «لا تتولد أى مشاعر عداء لدى أى أحد تجاه رعاة الزرافة».

وفى وقت لاحق من شهر مارس أبلغ حاكم مرسيليا الأساتذة.. بأننا فقدنا أنثى الظبى.. ولم يحدث أى إهمال وأرى الاحتفاظ بجلدها وهيكلها العظمى «وقرر التشريح البيطرى للجثة أنها ماتت نتيجة نطح الذكر والجروح التى أحدثتها قرونه فى جسمها وسمنتها وإصابتها بإلتهاب المعدة وهى مجموعة من الأسباب تكفى للتسبب فى أكثر من الموت.

ومع اقتراب الربيع كان الموضوع الطاغى والشغل الشاغل للرسائل المتبادلة بين أساتذة المتحف الوطنى للتاريخ الطبيعى وحاكم مرسيليا ودروفيتى هو كيفية نقل الزرافة إلى باريس. ولم تكن شبكة خطوط السكة الحديد قد أنشئت حتى ذلك الحين فى

فرنسا (فحتى عام ١٨٣٧ وعندما أقيم أول خط من باريس فلم يمتد سوى لأقل من عشرين ميلا غربا إلى سان جرمان - أن - ليه. كانت فرنسا تمتلك فى ذلك الحين أكثر من ثلاثين ألف ميل من الطرق المرصوفة بالحصى هى الأفضل من نوعها فى أوروبا. لكن دروفيتى الذى عاد ابن أخيه لتوه إلى الاسكندرية وسلمه طلبا من حاكم مرسيليا يلتمس فيه النصيحة رفض فكرة (الرحلة عن طريق البر) لأنها تشكل خطورة بالغة على الزرافة ورعاتها. أما الرون فإنه نهر متوحش مضطرب وكان يرى أنه من الأفضل أن تنقل الحيوانات بحرا إلى لوهافر.

وفى الخامس عشر من مارس رد أساتذة المتحف الوطنى يؤكدون من جديد إمتنانهم والأهمية العظيمة التى تمثلها الزرافة للعلم ولحديقة الحيوان ولوزير الداخلية «وفوق هذا وذاك الأهمية التى نعرف أن الملك يوليها شخصيا للحفاظ على تلك الحيوانات «لكنهم عمليا يرفعون أيديهم يتساءلون (كيف يتسنى لنا نقل الزرافة من مرسيليا إلى باريس؟. ولربما تكون فكرة وجيهة أن نرسل من هنا رجلا ذكيا قادرا عل توجيه تلك العملية».

واستطرد خطاب الأساتذة ليبلغ حاكم المدينة بأمر مالك مجموعة من الحيوانات المتوحشة الجوالة كانت فى ذلك الحين فى مرسيليا وهو رجل يدعى بوليتو وقد شاهد الزرافة فى نزهتها اليومية وكتب إليهم عارضا خدماته فى نقلها عن طريق البر إلى باريس، وأبدى أساتذة المتحف شكوكهم فى أن بوليتو قد يكون مهتما أساسا بالمال الذى يمكن أن يجمعه من فرضه على الناس التى ستسعى لمشاهدة الزرافة أثناء سفرها على الطريق «الأمر الذى لا يجوز إطلاقا مع شيىء يخص الملك شخصيا» - لكنهم طلبوا من حاكم مرسيليا محاورة الرجل تفصيلا والإستفادة على الأقل من خبرته فى هذا (النوع من السفر).

واستغرق الأمر عدة أيام أمضتها المركبات فى نقل الركاب والبريد بين باريس ومرسيليا. وفى ١٩ مارس وقبل تلقى رسالة أساتذة المتحف كان حاكم مرسيليا قد كتب لهم مصادفة يشرح لهم السبب الذى يدعوه الآن للاعتقاد بأن الرحلة عن طريق البر هى أفضل الحلول لحل مشكلة نقل الزرافة إلى باريس وجاء فيها:

إن الزرافة تتمتع دائما بحيوية فائقة وحيث أن الطقس لم يعد باردا فإنها تقوم يوميا بالسير لمسافة خارج المدينة. ومن المؤكد أن

هذا السير ضرورى لها . وهى مؤمنة فى تلك النزهات التى يتحمل خلالها ستة رجال مسئولية السيطرة عليها عن طريق وسائل إحتياطية كثيرة مثل الحبال الطويلة التى تسمح للزرافة بحرية السير. وتسبقها رفاقها البقرات الحلوب وهى تتبعهم، ولا تدفعها الضوضاء ولا حركة مرور المركبات أو حشود المتفرجين نحو العدوانية بأدنى درجة، ولم تعد الزرافة تخيف الحيوانات التى تقابلها . وكل تلك الملاحظات كفيلة بأن تدفع العقل للتفكير فى احتمال نقلها إلى باريس بالسير لمسافات قصيرة يوميا . ولايبدو أن هناك وسيلة نقل تروق لى، فالرحلة عبر النهر التى تحمست لها فى البداية سيشوبها الكثير من أوجه القصور مقترنا بالكثير من الصعوبات: فقد أصيبت الزرافة ببعض الرضوض الخطيرة (أثناء شحنها وإنزالها).. وأود منكم حقيقة أن ترسلوا شخصا من باريس تمنحه ملكاته وقدراته كل الثقة المطلوبة لتكلفونه بمهمة الإشراف على نقل الزرافة (وقد يكون من المستحسن بالنسبة له) أن يأتى إلى هنا للوقوف على عادات الزرافة ودراستها قبل الإنطلاق فى الرحلة معها .

وبعد أسبوع فى ٢٦ مارس عاود حاكم مرسيليا الكتابة ليرفض الاقتراح الخاص ببوليتو وهو الإقتراح الذى وافق على أنه (طرح من وجهة نظر تتكهن بالجزم بفضول العامة) وأكد مجددا على أن «كل شيء يقنعنى بأن الزرافة ستكون قادرة على الذهاب إلى باريس عن طريق السير لمسافة قصيرة يوميا لكن لا مناص من أن ترسلوا شخصا ذكيا يستطيع الإشراف على ترتيب كل شيء وعليه أن يصل إلى هنا فى أسرع وقت ممكن لمعاينة ترتيبات المغادرة (و) الوقوف على عادات الزرافة.

الفصل الحادى عشر
فى غمرة السعادة

لم يبلغ أحد فيلنيف - باجمون بأن «الشخص الذكى» القادم من باريس سيكون على هذا القدر من العظمة كإيتيان جوفروا سان - هيلير أحد أنبه علماء أوروبا فى القرن التاسع عشر.

كان سان - هيلير الرقيق بل ضئيل الحجم الذى يبدو كطفل والحالم بالأبطال قد هجر دراسته الكنسية عندما اكتشف العلم. وسمح له والده بالتوجه إلى باريس فى سن الثامنة عشرة لدراسة الطب شرط أن يدرس الحقوق أيضا للحصول على وظيفة مناسبة. ألهمته باريس والعلم وفجرا طاقاته ليتم دراسة القانون فى أقل من عام وأصبح محاميا لكنه لم يمارس تلك المهنة على الإطلاق.

وتقلب فى رحلته الفكرية الثمينة من العلوم الدينية إلى الحقوق فالطب فعلم الحيوان عندما اختير فى شهو يونيو ١٧٩٣ أى بعد شهرين فقط من بلوغه سن الحادية والعشرين ليكون أصغر إثنى عشر أستاذا كلفوا بتأسيس المتحف الوطنى للتاريخ الطبيعى.



حصن دي أيف

كانت الثورة الفرنسية قد اقتطعت المتحف من مدرسة باريس للطب التى هى فى الأصل الحديقة الملكية الطبية (لو جاردن دو روا)، وبعد إعادة تسميتها بحديقة النباتات وأصبحت جزءا من متحف جديد الهدف منه أن يصبح مؤسسة بحثية وتعليمية تنويرية - «واحدا من بيوت التنوير فى أوروبا» - تماما كما أراد جورج لورى لوكلير بوفون وحمل الشاب سان - هيلير لقب «مدير إدارة الحيوانات ذوات الأربع والحيوانات المائية اللبونة والطيور والزواحف والأسماك. «وكان عمله فى هذا المجال ينصب أساسا على جمع وتشريح الحيوانات وعظامها مستخدما الفورمالدهايد حتى حانت لحظة باهرة فى التاريخ ولدت فيها أول حديقة حيوان فى مدينة فى العالم. ووصف إبن سان - هيلير تلك اللحظة فى السيرة الذاتية عن والده بالقول:

بعد العاشر من أغسطس (١٧٩٢ عندما هاجمت الدهماء قصر تويليرى) نهبت حيوانات (الملك الراحل الذى أعدم بالمقصلة) فى فرساى: ومنها جمل عربى جميل وحيد السنم وعدد من الحيوانات الصغيرة من ذوات الأربع (و) أكلت أعداد كبيرة من الطيور أو سلمت لسلاخى الجلد. ولم ينج من المذبحة سوى خمسة حيوانات

من بينها خرتيت هندى وأسد، لكن لازمها سوء الحظ شأنها شأن كل ما ينتمى إلى الملك (وهكذا اعتبرت من أملاك الطاغية). فضلا عن هذا فقد كان يتعين إطعامها رغم أنها عديمة الجدوى وتشكل خطورة على المدينة. وهكذا تقرر إعدامها وعرض وزير المالية هياكلها العظمية على حديقة النباتات.

ورفض بيرنار دى سان - بيير الذى كان قد عين وكيلا (لحديقة النباتات) فى واحد من آخر المراسيم الملكية للويس السادس عشر وأدان أحكام إعدام حيوانات فرساى باعتباره جريمة عظمى بحق العلم. وطالب بضرورة نقلها إلى حديقة النباتات لتصبح هناك نواة لمجموعة حيوانات برية متوحشة ضرورية للغاية لكرامة الأمة كما قال ولدراسة الطبيعة (و) الفنون الحرة.. وكسبت قضية الحيوانات. وأنقذت أرواحها.

وسلبت حيوانات فرساى فى شهر أغسطس ١٧٩٢ لكن مصير الحيوانات الناجية لم يحل إلا بعد إعدام لويس السادس عشر فى أواخر يناير ١٧٩٣. وهكذا وجدت إدارة حيوانات سان - هيلير الوليدة التى كانت تفتقر المنشآت والأفراد والأموال اللازمة للحيوانات نفسها تمتلك فجأة أسدا وخرتيتا ورفاقهما الثلاثة الذين

تقرر وقف إعدامهم. وكان هناك أيضا كلب نشأ وتربى مع الأسد وشاركه قفصا واحدا. (أعاد الطهطاوى رواية متواترة راجت فى القرن التاسع عشر بأن تلك الصداقة الغريبة بدأت عندما أصيب الأسد بجرح مؤلم خففه الكلب ورعاه بلعقه من خلال قضبان قفص الأسد).

وبعد خمسة أشهر من تأسيس المتحف وفى الرابع من نوفمبر استدعى سان - هيلير من مكتبه ليتلقى شحنة غير متوقعة من الشرطة لم تكن سوى دب أبيض ونمر وحيوانات أخرى صودرت من سيرك جوال. ووصلت بدورها الكثيرمن الحيوانات الأخرى منها دب أبيض آخر وقرد ضخم ثم فهدان ونسران فيما وسعت شرطة باريس نشاطها ليشمل الحيوانات بالقيام بمصادرة الحيوانات المتوحشة المملوكة للأفراد. وما لبث أن أغلق سير كانْ جوالان آخران فى باريس وسلمت حيوانا‌تهما إلى سان - هيلير ، و«تحررت» حيوانات الترفيه فى الشوارع مثل الدببة الراقصة والقرود المدربة من الإستغلال الذى تعانيه.

ومُنِحَ المتحف صفة مؤسسة وطنية ولم يكن سان - هيلير مضطرا لقبول حصيلة ضبطيات شرطة المرافق. لكنه قبل تلك

الحيوانات موفرا لها الرعاية الجيدة ووضع أقفاصها فى ساحة المتحف ليجعل منها دولاب تحف عام.

وهكذا بدأت حديقة حيوانات باريس من لا شيء لكن ما كتبه إبن سان - هيلير بعد ستين عاما وصف «تهور والده فى سعادة فى إنجاز هذا العمل المستقبلى وسعادته فى حث زملائه على التعاون.

وقامت الثورة بتعويض الملاك عن ممتلكاتهم المصادرة. وبقى بعض ممن طردوا من أعمالهم وصاروا عاطلين عن العمل مع حيواناتهم وأصبحوا أول رعاة لها فى الحديقة.

وبعد خمسة أعوام لاحقا وهو فى سن السادسة والعشرين كان سان - هيلير من بين فيالق العلماء التى رافقت نابليون فى حملته على مصر. وجنده راعياه كلود - لوى برتوليه وجاسبار مونج اللذان كان عمرهما ضعف عمره: وقالا له «تعالى، نحن زميلاك وبونابرت جنرالنا». لم يكن بونابرت يكبر سان - هيلير سوى بثلاث سنوات. وفى القاهرة ذات يوم بينما يتفقد حجارة جبل المقطم التى بنيت منها الأهرامات مع سان - هيلير ومونج

حرك المشاعر بإعرابه عن أسفه لعدم تكريث حياته للعلم ، ولم ينس سان هيلير ما حييى قول نابليون لمونج: «وجدت نفسي غازيا لأوروبا مثل الاسكندر وكم كان ودى أن أسير على خطى نيوتن».

وكالكثيرين الآخرين من أبناء جيله كانت السنوات الثلاث التي أمضاها مع الجيش وقد تقطعت به السبل فى مصر فردوسا شبابيا من الصداقة الحميمة والبحث بالغ الغرابة. ووصف إبن سان - هيلير حال والده فى حياته بمصر «بأنه الأسعد كل يوم». فقد درس التماسيح النيلية وأصبح هذا العمل إسهاما رئيسيا فى مؤلف **وصف مصر** مستقبلا. وأعجب أيما إعجاب بحواة الثعابين المصريين «الذين تعد مهنتهم قديمة قدم الحضارة ذاتها». وحدثت له معجزة فى مصر عندما أبتلى بمرض الرمد المتوطن الذى كان عادة ما يصيب الناس بالعمى وارتد بصيرا بعد تسع وعشرين ساعة.

وعندما استسلم الفرنسيون أخيرا عام ١٨٠١ واجه العلماء شبح مصادرة جميع مجموعاتهم على يد البريطانيين بعد أن كابدوا فى جمعها، على يد البريطانيين. ورفض العلماء تسليم مجموعاتهم ورفع سان - هيلير بإعتباره المتحدث باسم العلماء

الأمر إلى السلطات العسكرية الفرنسية ليرافقوا مجموعاتهم إلى إنجلترا كأسرى.

وحل الجنرال عبد الله مينو محل كليبر في قيادة القوات الفرنسية في مصر. كان مينو أضحوكة لجيشه أرستقراطي سابق اعتنق الإسلام وغير اسمه إلى عبد الله حتى يستطيع الزواج من امرأة عربية كان يعتقد أن عائلتها عائلة ثرية لكن اتضح بعد زواجه منها أن والدها مجرد صاحب حمام. كان ضباطه يسخرون منه صراحة بل لقد اعتقل بوابيه للتمرد.

وادعى مينو أن حجر رشيد ملكية خاصة به ولم يكن أي إحترام لعمل العلماء ونصح القائد البريطاني جي إتش هاتشينسون: «لقد أبلغْتُ لتوى أن عددا من جامعي مجموعاتنا يريدون مرافقة حبوبهم ومعادنهم وطيورهم وذباباتهم وزواحفهم أينما اخترت شحن اقفاصها ولا أدرى ما إذا كانوا يرغبون في تحنيط حيواناتهم بأنفسهم لهذا الغرض لكن بوسعي أن أطمئنك بأنه إذا راقت الفكرة لهم فلن أمنعهم.

كانت جدة سان - هيلير قد قدمت له وهو في سن الحادية عشرة كتاب مؤلف السير الذاتية بلوتارك (حياة المشاهير من الرجال) وأثر فيه هذا الكتاب عن الأبطال أيما تأثير. وفي سن التاسعة والعشرين وفيما هو في مصر فقد كان الرجل الذي أنقذ

الأسود وغابات بأكملها مليئة بمجموعات وحوش الصيد لدى الأرستقراطية وأعلنها لهاتشينسون: بدوننا ستصبح تلك المقتنيات ميتة لا لغة فيها لا يمكنكم ولا يمكن لعلمائكم فهمها.. وبمجرد السماح بحدوث هذا السلب والتخريب الآثم والمتعمد فسوف ندمر ممتلكاتنا وسوف نذروها على رمال ليبيا أو ننثرها في البحر. وسوف نحرق ثروتنابأنفسنا. حسنا فالشهرة هي مبتغاكم ويمكنكم الإعتماد على ذاكرة التاريخ التي لا تنسى، فأنتم الذين أحرقتم مكتبة في الإسكندرية.

وسمح القائد البريطاني للعلماء بالعودة إلى وطنهم مع مجموعاتهم كانت إحداها

تخص السياسي الفيزيائي جوزيف فورييه الذي سيلهم صبيا آخر ليفك رموز اللغة الهيروغليفية، وسلم مينو حجر رشيد بسخاء غريب لينقل إلى لندن ليظل بالمتحف البريطاني إلى يومنا هذا.

وأثناء إبحاره إلى مصر أعجب سان - هيلير بهذا التعايش بين سمك القرش وسمك الزامور.. وما لبث أن اكتشف مثالا آخر على التعايش في النيل بين الطيور التي تقوم بتنظيف ما بين اسنان التماسيح النيلية، فقد أثارت إهتمامه تلك العلاقة المتبادلة بين أنواع شديدة التباين - فالحيوان المفترس يخدم وتخدمه .

فريسة سهلة -وذلك حتى قبل أن يصل أول أسد إلى المتحف من فرساى فى قفص واحد مع كلب.. وعندما مرض الكلب ومات ملىء أول بديل له يدخل إلى القفص رعبا لدرجة أقدم معها الأسد على قتله بضربة واحدة من قدمه .. فقد كان توقع الكلب يبدو وكأنه فى محله.. ومع ذلك وفى النهاية قبل الاسد كلبا آخر اكثر شجاعة رفيقا له فى القفص.

وفى تلك الحقبة الثورية بدا ان الحيوانات حتى الضوارى تمتعت أيضا بشكل من أشكال الاختيار.. كان زميل سان ـ هيلير فى المتحف جان باتيست - بيير - أنطوان دى مونت لامارك (وهو صاحب اسم علم البيولوجيا وحديقة النباتات) قد صاغ نظرية جديدة عن التطور تتطابق مع التنوير فى تفاؤله الأولى - بانه يمكن توريث الصفات المكتسبة (حيث يمكن ان يكون ابن لاعب رفع الاثقال أكثر قوة وأن اسلاف الزرافة مدوا أعناقهم حتى وصلوا إلى أوراق الشجر).

وستنقضى خمسون عامل قبل ان يصحح داروين نظرية لامارك عن احتمالية الاحتمالات غير المحدودة، نظرية التطور، إلى النظرية المعدلة البقاء للأصلح.

فى عام ١٨٣٠ أى قبل عام من إبحار داروين وهو في الثانية والعشرين من العمر على السفينة بيجل دافع سان - هيلير عن نظرية لامارك عن تعايش الأنواع ضد زميل آخر فى المتحف هو جورج - ليوبولد كريتيان كوفييه الذى عزا كل وأى تغيرات جينية إلى الرب.. ورغم ان جوته وصف الجدل بين سان - هيلير وكوفيه بأنه الحدث الاهم في التاريخ الأوروبى، إلا انه لم يكن مجرد جدل ديني هراء .

وتوسعت دراسات سان - هيلير ولم تكن مجرد رد فعل لخلفيته الانتقائية. فلم يكن علم التنوير بزخمه الانسانى نحو الافضل يمثل مشكلة إيمان.. فقد كان مفكرو أوائل القرن التاسع عشر يناقشون قضايا الألوهية وكان الخالق لايزال يجيبهم وعندما أبحرت بيجل فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٣١ كان التكليف الصادر لداروين بصفته رجل التاريخ الطبيعي على السفينة هو العثور على دليل عن الخلق كما ورد فى التوراة. وبحلول عام ١٨٤٥ الذى توفيت فيه الزرافة روع داروين من التداعيات الدينية لنظريته التي كانت لاتزال طى الكتمان وأسر بانها .. كالاعتراف بالقتل.

وثمة بعد آخر للبحث التنويرى فى العلاقة مع الخالق تمثل فى اهتمام سان -هيلير فى الطفرات الجينية - سواء أنواع ناجحة مثل التماسيح النيلية أو الانحرافات الفردية المكونة للطفرات الجينية. وتناول احد بحوثه الكثيرة عن الأجنة الضخمة.. ظاهرة التوءم السيامى الناجمة من التزاوج الظاهرى بين كلب وشاة.. كان سان - هيلير مؤسس علم عجائب المخلوقات معتقدا أن التشوه يشرح التطور الطبيعي.. فما يسمى باستثناء الطبيعة اصبح يخضع للدراسة ولم يعد يستبعد كشذوذ.

وبعد ثلاثة عقود من الحملة على مصر تضافرت افتراضات أبحاث سان - هيلير عن العلاقة التبادلية بين الأنواع والانحراف عن الطبيعة فى مغامرته مع الزرافة على نحو مفاجىء.. كانت الزرافة كائنا غريبا من جميع الاشكال حيوان غريب قوى مرتبط فى سكينة مع البشر. وكان هو عالما بارزا فى الخامسة والخمسين، مفكر لامع يعانى من النقرس والروماتيزم ألقى ضوءاً باهرا على جميع أبطالها غير المحتملين.

مع نهاية شهر أبريل ١٨٢٧ كان الربيع رائعا فى جنوب فرنسا، وشعر فيلنيف - بارجمون الذى كان يترقب سان - هيلير فى لهفة بخيبة أمل لعدم وصوله.. ويتفاؤله الدبلوماسى المعهود أشار حاكم

مرسيليا على أساتذة المتحف بأنه فى الوقت الذى سيصبح فيه الجو أدفأ فى الشمال قبل قيام الزرافة برحلاتها اليومية القصيرة فمن المستحسن أيضا ان تبدأ الرحلة قبل أن ترتفع درجة الحرارة فى فصل الصيف بالجنوب.

وطمأن حاكم مرسيليا الأساتذة وبأن حالة الزرافة أفضل دائما.. (فالدفء) الحالى وخضرة الحقول سيدفعانها لإظهار أقصى درجات النشاط الودود فى نزهتها اليومية.. فاستمرار الرعاية التى تحظى بها يعدنا بأنكم فى المتحف على موعد اكيد مع الملكية الخاصة الثمينة.

وبينما كان ينتظر سان - هيلير وقبل حاكم مرسيليا بسعادة تحمل المسئولية عن اثنين من حيوان المفلون وهو شاة برية بقرنين مقوسين متسعين يعيش فى جبال كورسيكا وسردينيا.

وهما هدية من ماركيز محلى تصادف أن يكون إبن عم لحاكم مرسيليا.

وفى طريقه إلى مرسيليا توقف سان - هيلير فى مونبلييه التى وصفها بانها العاصمة الثانية للعلم.. حيث أجرى مفاوضات مطولة شاقة من اجل مجموعة قيمة.. من السمك جلبها قبل خمسين عاما العلماء الذين كانوا يستكشفون البحار الجنوبية مع

الكابتن كوك.. وحاول المتحف لفترة طويلة دون ان تكلل جهوده بالنجاح اقتناء تلك المجموعة وكان الاكاديميون في موبلييه يرفضون على الدوام التخلي عن المجموعة حتى ظهر سان - هيلير وتحسبا لأن يصيبه غار رفض آخر وذهب بنفسه ليتملق كل عالم على انفراد وكان مقنعا لدرجة ذهلوا معها لاحقا بان يجدوا انفسهم وهم يوافقون جميعا على إعطائها لهم وكرم بينما كان هناك يعقد مؤتمر علمي لبحث احدث مطبوعاته.

وصل سان - هيلير الى مرسيليا في الرابع من مايو ١٨٢٧.. وبعد الرعاية الفائقة التي أولاها حاكم مرسيليا للزرافة فاجأه وسره ان توفد الحكومة مثل هذا العالم اللامع للاشراف على رحلتها الى باريس.. وتوطدت علاقة صداقة حميمة بين الرجلين وفي رسائلهما اللاحقة ظهرا كما لو كانا زوجين يبثان شوقهما للزرافة.

وامضى سان - هيلير أول ثلاثة أيام له في مرسيليا يدرس مظهر وطباع حيوانه العملاق ورافقها في نزاهاتها اليومية يقنع نفسه في قلق بانها قادرة على قطع رحلة لمسافة خمسمائة وخمسين ميلا على الاقدام.. فقد تنفق من الإرهاق فلن يغفر لي

فشل مهمتى على الإطلاق .. لكننى اعول على جميع المميزات المتاحة (بكل) التصميم والثقة فى المستقبل.

وتسجل القوائم والاوامر وخطط الرحلة والفواتير على مدار الاثنى عشر يوما التالية مدى كثافة الاستعدادات التى اتخذت لأعداد قافلة الزرافة . كان الطقس لايزال بارداً على غير العادة فى شمال فرنسا .. كان أدفأ فى الجنوب لكن عادة ما تسقط الأمطار.. ولحماية الزرافة وتدفئتها أمر سان - هيلير بتفصيل معطف واق من المطر من المشمع.. بمقاس جسمها ورقبتها من قطعتين.. مطرز بشريط أسود على كل الاطراف .. واشتمل الأمر على مقود جديد لها، وخوفا من تآكل حوافرها قبل نهاية الرحلة سان - هيلير أنه قد يكون من الضرورى حال وصولها الى ليون.. ضمان حماية اقدامها بأحذية طويلة.

وأبلغ حاكم مرسيليا اساتذة المتحف فى باريس ان سان - هيلير وهو منهمك في مرسيليا قام بتفقد المجموعات العامة ودولايب التحف الخاصة بالأفراد الذين زرعوا هذا النوع من المعرفة فى الاقليم وتجاوب مع رغبتهم.

في معرفة الأسماء العلمية لتلك المجموعات.. ونزولا على رغبة وتوسل اطباء مرسيليا ألقى سان - هيلير محاضرة قيمة فى مدرسة سالز الثانوية (أطلع فيها الأساتذة والطلبة على احدث تطورات علم التشريح وترك عطاؤه المتناهى فى هذا القطاع من السكان انطباعا بالنتائج التى يمكن ان تؤتى فى مرسيليا وطولون.

ومبالغاً فى الإطراء على البروفيسور جروفروا سان - هيلير الذى كان وحده.. مؤشرا كافيا على الأهمية التى توليها الحكومة للحفاظ على المقتنيات الثمينة للمتحف الوطنى للتاريخ الطبيعى.. كتب حاكم مرسيليا إلى السلطات لاتخاذ التدابير الأمنية الاحترازية امام الحشود وحركة المرور.. فالزرافة شديدة الوداعة ولا يمكن ان تسبب اى حوادث سوى تلك الحوادث العارضة التى يمكن ان تنتج عن صدمة تصيب حيوانات الجر بجسها الضخم نتيجة ما يتملكها من الخوف لدى رؤية الزرافة.. واستدعيت تعزيزات من الدرك لحراسة القافلة كل فى منطقته. وطلب من افراد الدرك ايضا.. إبقاء البقرات فى متناول الادلة وصدرت التعليمات الى عمد القرى المتصور ان تتوقف فيها الزرافة

ليلا بتوفير إسطبلات بأسقف يتراوح ارتفاعها بين اثني عشر الى ثلاثة عشر قدما على الاقل.

ولتسهيل نقل الزرافة إلى باريس بيعت البقر المصرية الحلوب التي جف ضرعها.. وبفضل تحمس حاكم مرسيليا للحيوانات فقد حل مكانها ذكر وأنثى المفلون التي اصبحت حاملا الآن.. واعتزم سان - هيلير أيضا تخفيف أمتعة الزرافة.. بترك الظبى الذكر والغذاء سيحتاجه في مرسيليا لكن رؤية تفرد هذا الحيوان دفعته الى تغيير رأيه.. لم يكن سان - هيلير قد شاهد حيوانا مثله وما كان بوسعه سوى وصف تشابهه مع أكثر الانواع المعروفة : وتبين ان رفيق الزرافة حيوان ثمين للغاية.. جديد على علماء الحيوان.. .. بل إنه يندرج تحت نوع جديد حيث يحمل الملامح الرئيسية لحيوان.. النو التيتل الافريقى... «والمفلون والظبى..

كان هذا الحيوان جديدا تماما على أوروبا لدرجة لم تطلق أي أسماء على انواعه بعد وأسماه سان - هيلير بالسنارى نسبة إلى سنار بوسط افريقيا ووصفه لزملائه فى باريس بانه..

قوى لكنه شديد الازعاج.. وصنع له قفصا قويا واستؤجر حصان ومركبة لنقله مع قفص حيواني المفلون.

واتفق على زيادة الراتب اليومى لسائق المركبة إذا زاد زمن الرحلة على خمسين يوما.. واشتمل اجره على البقاء في باريس لثمانية ايام ومدة عودته التى تستغرق اثنى عشر يوما الى مرسيليا.. وحددت فاتورة بتفصيل تام تكاليف مركبة فى حالة جيدة وطقم جديد للخضان وأن الحصان المناسب للمركبة يبلغ ثمانى سنوات.

فضلا عن هذا وحيث ان الحيوانات في اقفاصها فسوف يكون السائق مسئولا عن حمل طعامها من الشعير والنخالة والفول الذى اراد سان - هيلير تجنبها لكنه اشترى منها فائضا يكفى حتى الوصول الى ليون.. وستحمل المركبة ايضا جلد وهيكل انثى الظبي ومتاع سان - هيلير ومؤونة رعاة الحيوانات الاربعة.. وحصل الرعاة والسائق مقدما على رواتبهم.. وعلى النفقات الأخرى المترتبة على مغادرتهم.

وانضم الى سائق المركبة وحسن وعطير وسان - هيلير في الرحلة اثنان اخران .

كان أحدهما هو بارتليمي هذا المواطن المرسيلي الذى ظهر فى البداية فى السجلات على انه الرجل الذى اوفده حاكم مرسيليا لاستلام مفلون ابن عمه .

والغريب ان راتب بارتليمي يبلغ ضعف راتب حسن رغم أن حسن هو الشخصية المحورية المسئولة عن الحيوانات ورعاتها وكان شديد الاعتماد على عطير.

أما الوافد الثانى الجديد على زمرة الزرافة فهو فتى اسمر فرنسى من اصل مصرى يدعى يوسف عبيد.. كان يوسف (جوزيف بالفرنسية) ابن لاجئين رافقا جيش نابليون لدى عودته الى فرنسا.. وبعد ست وعشرين سنة من الانسحاب كان المصريون لايزالون يقيمون فى معسكر للاجئين فى مرسيليا حيث نشأوا وشبوا يتحدثون لغتين.

واقتضت القيود العسكرية المفروضة على اللاجئين قيام حاكم مرسيليا بنفسه بإبلاغ القائد بأمر مغادرة يوسف الى باريس.. وبدون الاشارة الى عمره على وجه التحديد فقد وثقت السجلات كان شابا بما يكفى لدفع نفقات الاعانة الاجتماعية التى قد يطلبها والده بينما هو بعيد يخدم سان – هيلير كأب فى

الحقيقة ومساعدا ومترجما ..لسان – هيلير مع حسن وعطير ..
كان يوسف عبيد اللاجىء المصرى رقم ٤٨٧ مؤهلا للحصول على اعانة يومية قدرها ٧٢ سنتا بأسعار عالم ١٨٢٧، وقبل الرحيل سلمه سان – هيلير راتبه كله وقدره (٤٣,٢٥) فرنك وكان يبلغ ضعف إعانته الاجتماعية وسيتكفل راعيه الجديد بدفع نفقاته على طول طريق الرحلة.

ولابد وأن الاثارة غمرت الفتى لدى علمه بأنه سيشارك فى مغامرة وشيكة، ولسوف يرى ابن لاجئين مصريين باريس مع زرافة الملك. ومع ذلك لم يكن لدى يوسف أو أى من الآخرين ادنى فكرة عن شهرة الطريق التى تنتظر موكب الزرافة فلم تكن حشود المتفرجين فى مرسيليا سوى مجرد قطرة فى محيط ما سوف يأتى.

الفصل الثانى عشر
ومن الفضول ما قتل

كانت نصيحة فيلنيف - بارجمون هى انتظار سطوع الشمس للرحيل لكن سان - هيلير صمم على الرحيل عند اول لحظة سانحة.

ومع اشراقة يوم العشرين من مايو ذلك اليوم المطير أى بعد ستة عشر يوما من وصول سان - هيلير اطلت الزرافة فى معطفها الجديد ذى الأطراف المطرزة بشريط اسود نتبع البقرات الحلوب من قصر حاكم مرسيليا للمرة الاخيرة.. ومن الامام كان حسن يسبقها على الدوام ممسكا بحبل القيادة.. اما عطير وبارتليمى فقد كانا يمسكان بحبلين للخلف من كل جانب.. كانت الزرافة تسير بسلاسة لا يسيطر عليها سوى ثلاثة رجال فقط متمرسة خلال نزهاتها اليومية على مدى اشهر برغبتها فى إبقاء البقرات الحلوب تحت ناظريها . كان صباح

يوم احد تعس.. وفيما الكنائس تقرع أجراسها وبدلا من سلوك طريقها المعتدال في طقس صاف للخروج إلى الريف بدأت القافلة لارتقاء الطريق الطويل في ارض موحلة بعيدا عن البحر.

وبتفكيره المألوف قدم حاكم مرسيليا لسان - هيلير رفيقا حلو الحديث لهذا اليوم الأول في المسيرة الى اكس - أن بروفانس وقاد الرجلان الركب تحت المطر تتبعهما البقرات الحلوب تتأرجح ضروعها سابقة الزرافة.. وتولى جنود الدرك الحراسة في المقدمة والمؤخرة مبقين خيولهم على مسافة متغيرة من الزرافة ونحيت العربات والمركبات والكارتات القادمة على جانب الطريق تجنبا لترويع أطقمها لدى مرور الموكب، وذهل سائقوها وركابها لمرأى الحيوانات الغريبة في اقفاصها الموضوعة على المركبة والاستمتاع بمشهد الزرافة المثير بمعطفها الواقي من المطر.

كانت الزرافة هي الأوفر صحة وحيوية والأقل توترا بين مرافقيها بفضل الرعاية الفائقة التي وفرها لها حاكم مرسيليا.. فهي تقترب الآن من النضج التام وزاد طولها ست بوصات عما كان لدى وصولها الى مرسيليا ليصل الآن الى إثنى عشر قدما بالتمام والكمال.

اشارت تقديرات سان - هيلير إلى أن الاميال العشرين الاولى الى إيكس أن بروفانس ستستغرق ثمانى ساعات لكن تبين له مع بطء التقدم،، أن هناك مسافة كبيرة يتعين قطعها،، فضلا عن طول فترة هطول المطر ومجموعة الناس التى لم ترتفع لمقتضيات الرحلة وتأهبت لنفض يدها من الأمر وجاء فى اعتذاره الذى كتبه إلى حاكم مرسيليا فى اليوم التالى من إيكس :
ان كل الامور تثبت صحة المقولة القديمة بأن هناك ربا للأبرياء (مثل) الزرافة من يكون هذا السفية (سان - هيلير) الذى وضع هذا الحيوان على الطريق فى مثل هذا الطقس السىء؟ وفى باريس سوف ينظرون إلى بدون شك من زاوية التقصير لانهم لا ينظرون سوى إلى الهدف، وهدفهم هو الزرافة ، فهم قد لا يميلون سوى بالكاد لتقدير الصعوبات.

كم أنا مدين لكم سيدى شخصيا أما فيما يخص الأفريقية الجميلة،، (فإننى) أجدد وعودى باطلاعكم على الدوام بكل ما يطرأ على،، ابنة مشاعركم و اهتمامكم.

كان حاكم مرسيليا قد اقترح ان يزين معطف الزرافة بشعار النبالة فى فرنسا لكن لم يكن هناك وقت لانجاز تلك المهمة قبل مغادرة مرسيليا.

واصبح الشعار المنقوش على معطف الزرافة بجوزة سان - هيلير أثناء الاستراحة فى إيكس وفى بادرة على التقدير فقد طلب من السلطات المحلية إبلاغ هذا الامر لحاكم مرسيليا فى الرواية التى ترسل إليه حول زيارة الزرافة.. إن الزرافة فى صحة جيدة لقد اسدي السيد جوفروا معروفا عظيما للسكان، ففى صباح الاثنين اخذ الزرافة فى جولة عند جدول وكشف عنها معطفها بعض الوقت كى يراها الناس: وقامت بنزهة مماثلة في السابعة مساء وكانت حشود المتفرجين تفوق الوصف.

ووصف سان - هيلير الحشود تحت الاشجار الظليلة المتشابكة على طول مجرى ميرابو عند كاتدرائية إيكس السامقة العتيقة.. بأنها مثل هجوم الفرسان .. فاليوم كان يسبق يوم عيد الصعود وتأجل موكب دينى وبدا أنه كرس الصباح للإثارة التي يفجرها مشهد الزرافة.. وكتب إلى حاكم مرسيليا لكن الناس هنا

فى غاية.. النهم والفضول.. واصبحت الزرافة اكثر كللا من شواغل السكينة عما كانت عليه يوم المسيرة.

وخلال يوم الراحة ذلك كان من الضرورى إشباع فضول الارستقراطية المحلية الحذر.. وفى أيكس علم سان - هيلير على الفور أنه سيطلب تنظيم عروض عامة وخاصة للزرافة وهو موقف وصفه لحاكم مرسيليا بأنه مهمة مضاعفة للزرافة الشابة المسكينة لابنة بيتكم بالتبنى.

وغادرت القافلة وسط أجواء أقل قسوة فى تمام الساعة الثامنة صباحا ولاتزال تصعد باتجاه الشمال الغربى عبر المرتفعات الحجرية الجيرية واشجار الصنوبر وكان خطاب سان - هيلير التالى الى حاكم مرسيليا اكثر اشراقا.. وبعد ثلاثة إيام من أيكس ولدى الاقتراب من افينيون: كان الجميع يعرف ما يتعين عمله وكان كل فى موقعه اقول كل (منا جميعا) حيوانات وبشر.. ساد الهدوء الزرافة هذا الصباح فى اورجون، وهى تحت معطفها: وبمجرد ان رأت الحشود لحظة المغادرة سارت على هداها متبعة اوامر كبير رعاتها حسن متألقة كطاووس متحررة من حبل قيادتها.

وأمسك عطير بما يعتبر (على الاقل من وجهة نظر حسن وعطير) انه ثانى أهم حبل إلى يمينها فيما ترك الحبل الأقل اهمية على اليسار لبارتليمى بينما تولى يوسف عبيد مهمة قيادة البقرات الحلوب.. وتراجعت غابات الصنوبر الصخرية لتفسح الطريق امام بساتين اللوز والزيتون والكرز.. واكتست حقول القمح باللونين الاخضر والاصفر وتناثرت فيها زهرات الخشخاش الحمراء.. ونمت زهرات السوسن البرى فى كل مكان بأفرعها الصفراء ناشرة اريجها العنبرى العذب فى الأجواء.. واصطف السكان المحليون على طول الطريق مما جذب فضول طائر العقعق الذى كان وجوده كفيلا بإثارة الحشرات لتنطلق نحو طيور المسامة التى تتدافع فوق الرؤوس.

وحظيت الشخصيات المحلية الشهيرة وأصدقاء العلم.. بشرف السير مع سان - هيلير فى مناطقهم . وعند كل توقف ليلى قوبل رسميا بالتحية والترحاب ووجهت إليه الدعوة لمشاهدة دواليب تحف الاطباء والبيطريين المحليين.

واحتفى رجال الطب مع علمهم بأبحاث سان - هيلير عن تشوه الكائنات الجينى بزياراته باطلاعه على عيناتهم الممتازة.

وكتب الى حاكم مرسيليا يقول : إن حصيلتى فى هذا الصدد وفيرة.. اثنتان فى أيكس فى سان كانا واثنتان فى لامبس: لقد منحونى (الكائنات الجينية المشوهة) بسخاء منقطع النظير.

وقد اثارت عينتا لامبس اهتمامى الى حد كبير: انها جديدة بالنسبة لى وستسجل فى تاريخ العلم يوما ما.

اننى اعتبر تلك المكاسب الخيرة التى جاءت على غير توقع افضل تعويض عن هذا الوقت الضائع الذى لم يوظف فى صمت المعمل.

وبعد الليالى الأربع الأولى على الطريق مزح سان - هيلير مع حاكم مرسيليا عن حاجته لانقاذ القافلة من جشع اصحاب النزل الذين وصفهم بأنهم سلابون.. إننا ندفع مقابل شعار النبالة.. انهم يقولون : إن الحيوان الجميل الخاص بالملك له سيد يستطيع الدفع وهم يتصورون ان يصنعوا منى الكونت سان - هيلير وتحدث صاحب نزل آخر مع ذلك بحقيقة شعرية عند مخاطبته سان - هيلير كونت دى لا جيراف.. اى سيد الزرافة.

وفى افينيون استراحوا لثمان واربعين ساعة قبل التوجه شمالا باتجاه وادى الرون.. والآن سرت موجة من الكرم وبعد

بلدة اورانج التى تغد سوقا زراعيا بمدرجها الرومانى سارت كل قرية على نفس الشاكلة حيث السكان البسطاء وعمدتهم مرتديا وشاح السلطة الفرنسى ثلاثى الالوان يلقى خطاب ترحيب سواء توقفت القافلة أم لم تتوقف.

وأرض الريف مفتوحة ومنبسطة وكانت الايام الباردة على غير العادة على طول الرون طويلة ورتيبة لمسيرة الزرافة فى الساعة.. كان دفء المتوسط يستثير الرياح الباردة من الشمال رياح المسترال.. وفيما الرياح تضرب وجه القافلة كان الجانب الشمالى لكل مبنى ومنزل خلف القافلة خاليا من النوافذ والابواب بعد ان اطاحت بها الرياح العاتية المسماة.. بسيد وادى الرون.

وارتبكت استراحة الظهيرة مع تزايد الحشود حيث كانت كلمة الزرافة تسبقها دائما.. وذكر سان - هيلير انه.. كان مشغولا فى هذا الصدد بكافة الاشخاص الذين يتدفقون على طول الطريق من الاكواخ ومن القصور أيضا.

وبعد ظهر كل يوم تعين على سان - هيلير ان يهرع قبل قدوم الزرافة.. ليبحث ويتفق على سعر الاقامة سلفا.. لمبيت الليلة:

مساء كل يوم كانت تظهر شواغل جديدة في الإعداد لمبيت الزرافة مما كان يقتضى (إما) العثور على اسطبل مناسب أو إعداد اسطبل مناسب وغالبا بطريق الإزالة لرفع السقف.. وحتى تقضى الحيوانات التى تنقلها المركبة ليلها فى راحة كان يتم إخراجها من اقفاصها كل مساء لتعاد إليه فى الصباح الأمر الذى كان يستغرق وقتا ويستدعى القوة والحيطة (ولدى) الوصول إلى كل بلدة مأهولة بالسكان تعين الدفاع عن الزرافة من شرور الفضول النهم.. وكان على ان اتصدى للحشود التى تدافعت فى صخب نحو الزرافة وتجدد هذا دواليك كل يوم .

وفى كل ليلة وبعد الحشود تعين على سان - هيلير امتاع جمهور خاص من الطبقة العليا والمسئولين المحليين الذين أقر قائلا : بقدر ما يسعنى.. فاننى أيسر لهم على هواهم متعة تأمل الحيوان الغريب المسافر.

وامضت القافلة الليل فى كل من أورانج ولا بالو (حيث وضعت انثى المفلون) ومونتيلمار ولوريول.. وكانت تستأنف المسيرة كل

صباح وسط الرياح المصحوبة بالأمطار أو غير المصحوبة بها لتقابل البسطاء بينما تذرع الطريق مجتازة الجانب الشمالى لكل قرية ومنزل ناء.

وبعد افينيون كانت اول مدينة يبلغونها هى فالانس حيث كان سان - هيلير ممتنا لرسالة من حاكم مرسيليا.. كان نابليون صديق سان - هيلير قد درس فى مدرسة المدفعية بالمدينة فى سن السادسة عشرة.. وفى زمن الزرافة ظلت مدينة فالانس مركز تدريب عسكرى كما هى الآن مدينة تعج بالفتيات والشباب بزيه العسكرى.. وشاهد سان - هيلير المريض المتعب بلغ الخامسة والخمسين من العمر المجندين ولابد انه تذكر شبابه مع نابليون .. كل حياته - كما قال ابنه - كوارث ١٨١٣ و ١٨١٤. الغزو الأجنبى .. إحتلال باريس وسقوط الرجل العظيم الذى عرفه واحبه فى مصر: وقد ألم به هذا الانتكاس للنصر فى حزن هائل.

وما بين ليون وفالانس يجعل المسار المنحدر للرون منه نهرا سريعا ووحشيا.. ومع كثرة الثلوج الذائبة من الألب ينطلق باتجاه الجنوب مجللا بالخضرة تكسوها رؤوس بيضاء وفى الربيع تبدو رياحه وكأنك تقف وقطار بالغ السرعة ينطلق كالسهم

بجوارك.. وفيما يسود الدفء في وادى الرون فى الربيع وتتعادل درجات حرارته مع درجات حرارة بروفانس والمتوسط ، تهدأ رياح المسترال فى الشمال.. ومع هذا كان ربيع ذلك العام باردا على غير العادة.. واشار سان - هيلير إلى أنه خلال الأيام السبعة عشر التى امضاها فى الطريق من مرسيليا الى ليون وتعرضت القافلة لعاصفتين وعدة ايام مطيرة.. ولوقت متأخر حتى الأسبوع الأول من شهر يونيو هطلت الأمطار ثم تحولت الى ثلوج فى المرتفعات المحيطة بمدينة ليون.

ولطالما شاهد حسن وعطير فيضان النيل نتيجة هطول امطار الصيف لكن هذا لم يكن يمثل شيئا امام وحشية مياه الثلوج الذائبة والرياح المسماة بالرون.. وقبل ان يمضيا الشتاء فى مرسيليا لم يكونا قد خبرا برد الشمال القارس ولم يشاهدا مثل هذا الانتقال بين الفصول.. فالشتاء فى وادى النيل هو فصل الزراعة والانبات وبمحاذاة النيل فالخلفية هى الصحراء والصحراء دائما.

ومع ذلك وعبر وادى الرون إستمر الريف فى التغير وإلى الشمال من فالانس يقفز الطريق من مسافات الجنوب الزرقاء إلى

مزارع وقرى الشمال النائية الخضراء بأسقفها القرميدية الحمراء بلون الشريط المعلق به الحجاب برقبة الزرافة .. وتمتد الأرض مترامية في شكل حقول ومزارع كروم وبساتين ومساحات تتظلل باشجار التوت.. اشجار الذهب.. التى غذت صناعة الحرير فى فرنسا التى تتمركز فى ليون.

وفى تان وفى الأول من يونيو دخل مسمار بين حوافز الزرافة.. ونزع المسمار على الفور غير أنها لم تعرج او تتقدم ببطء لكن سان - هيلير إرتأى أنها تستشعر القلق من رحلة الأيام الستة المتواصلة من افينيون.. وقرر إبطاء سرعتها لتستغرق الرحلة ستة أيام بدلا من أربعة أيام من فالانس الى ليون.

وفى تلك الليلة وبدلا من إراحة نفسه ترك سان - هيلير طبيبا محليا كان تلميذا سابقا له ليتولى مهمة الإشراف على مسيرة الزرافة فى اليوم التالى إلى سان رامبير ومضى بمركبة البريد.. ليرتب كيفية التعامل مع مراسم الفضول فى ليون العظيمة وأراد تطبيق خطة جديدة وصفها فى رسالتين بعث بأولاهما فى اليوم التالى إلى صديقه حاكم مرسيليا .. أما الثانية فقد كانت رسمية مرسلة إلى وزير الداخلية فى باريس.

وفى ليون كما فى الخرطوم يلتقى نهران، فالرون يهبط من الشرق نازلا من الألب متغلبا على نهر السون الداكن الأهدأ الذى يتدفق إلى المدينة من الشمال.

اصبحت خطة سان - هيلير الجديدة الآن هى تجنب الحشود والتخفف من قسوة السير بالإبحار فى نهر السون الذى يمكن الإبحار فيه.. وكتب إلى وزير الداخلية يقول:

لاتزال الزرافة تتمتع بصحة جيدة.. لقد تحملت بجلد وشجاعة مشقة .. الـ ١٦٦ ميلا من مرسيليا حتى تان.. لكنها تشعر بآثارها وبدأ الملل ينال من البقرات..

فإحدى المولودات فى مصر بدأت تعرج قليلا.. فلا يسعنى اخفاء ان الرحلة وعبر المسيرة الطويلة قد اصابت (الزرافة أيضا) بتعب كبير وارتباك فى الحركة (و) لمصلحة صحة الزرافة التى كلفت بها تحت رعاية فخامتكم .. فقد إرتأيت أن الأرصفة والانزال والزوارق عبر السون) هى الأكثر مناسبة.. للزرافة

التى تصبح اكثر ألفة يوما بعد يوم مع ازدياد سهولة انقيادها وتعلمها الذاتى فإنها تكتسب شمائل الخيول والجمال (بما يمكنها) من ركوب الماء والنزول من ليون إلى شالون.. وسترتفع التكاليف بنحو ثلث تكلفة نقلها عن طريق البر فقط.

وفى تلك الرسالة اقترح سان - هيلير أيضا انه لدى الاقتراب من باريس يتعين ان تحصل الزرافة على راحة لمدة تتراوح من ثمانية الى عشرة ايام قبل ان تتعرض لفضول المدينة الأكبر.. وإذا سمح الملك باستقبال الزرافة فى اسطبلات قصره فى فونتينبلو مما سيتيح لجلالته وافراد عائلته رؤيتها فى اقرب فرصة فسوف انعطف بالقافلة (وكل ما تقدم) سيعوق الخطط الحالية ويجب ان تأمر به فخامتكم وعلى العكس إذا لم أتلق أوامر فسوف امضى مباشرة إلى بورجوندى كما هو مقرر.. وبعد النزول فى شالون سوف اقدم لفخامتكم برنامجا ببقية الطريق .. وإذا مافوضت فى (المضى قدما عبر نهر السون) فسوف

اكرس نفسى (لهذا الهدف) بكل حيوية وتفان.

وبثت رسالة سان - هيلير إلى حاكم مرسيليا شواغله وفخره واستعرض التعب الذى ألم بالزرافة مذكرا بتأثر خجلها فى شرب اللبن أمام الغرباء.. ولن تصدق كم.. هى وديعة بطريقة بديعة تنبع من طاعة عظيمة.. وفى لوريول وفى المساء وصباح اليوم التالى شربت اللبن برباطة جأش متناهية امام المجموعة بأكملها ولم تعد تأتى بتصرفات متمردة (لكنها) متعبة ومن الأفضل اتخاذ جانب الحيطة بدلا من تدبر العلاج.

كان سان - هيلير الذى توقع موافقة وزير الداخلية على خطته الجديدة قد أعد العدة بالفعل للابحار بالقافلة عبر نهر السون عندما وضع رسائله بالبريد واقفل عائدا على وجه السرعة إلى سان رامبير فى تلك الليلة.. كانت القافلة على مبعدة ثلاثة ايام إلى الجنوب من ليون التى تصلها فى الخامس من يونيو وتحاول الحصول على قسط من الراحة قبل الانطلاق صبيحة التاسع من يونيو.. وخلال رحلة الايام الاربعة الى شالون فلن يتجاوز اقتراب الحشود ضفتى النهر.

الفصل الثالث عشر

غريب فاتن

دخلت الزرافة ليون في موعدها المقرر في الخامس من يونيو ١٨٢٧، وفي نفس اليوم سقطت اثينا في يد الاتراك.. فمنذ شهر مارس كانت قوات محمد على التي دربها الفرنسيون تستأصل اليونانيين المنتصرين سابقا في معركة تلو الاخرى، وفيما كان والي مصر محمد على باشا على طريقه لان يصبح اكثر الشخصيات المكروهة في أوروبا جعلت صحف ليون من زرافته أهم حدث في فرنسا.

وكتبت إحداها تقول :

قامت الزرافة اليوم بجولة في جزء من المدينة رافقها رعاتها وعدد من جنود الشرطة وحشد كبير من المتفرجين.. ولم يفت هذا الحيوان الدمث أن يزور الحاكم الذي استقبلها بالحفاوة التي تليق بغريب جميل.. ولحمايتها من البرد فقد غطيت الزرافة

بمعطف من قماش التفتة الحريرى المصقول.. ويبدو ان درجة الحرارة غير العادية التى تعرضنا لها لعدة ايام قد ضاعف من شدة البرودة فالبرد اليوم كان قارسا لدرجة سقط معها الثلج على المرتفعات القريبة من ليون.

وذكر سان - هيلير أن درجات الحرارة هبطت لأقل من ٤٣ درجة فهر نهايت .. أثناء وجودهم فى ليون.

وأوردت الصحف تقارير يومية ونشرت مقالا من جزءين عن الزرافة لسان - هيلير الذى تلقى أيضا مراجعات إشادة على خطابه المثير أمام الطلبة المحليين.

كانت ليون مثيرة فى ذلك الأسبوع. فبالإضافة إلى الزرافة وحاشيتها الغريبة التى تشاهد مرتين فى اليوم تحت أشجار الزيزفون الكبير على الجانب الجنوبى لساحة بلكور الضخمة «وبمحاذاة بائعى الزهور» كان هناك إنتحار القتل الرهيب وعملية إعدام «شملت جميع المدانين» كرادع دفع صحفيا بإحدى الصحف إلى كتابة افتتاحية حول ضرورة إحلال نظام التهذيب والإصلاح محل القصاص فى قانون العقوبات.

وفى ذلك الأسبوع أيضا وفى ساحة بلكور نشرت الصحف إعلانات:

يتشرف السيدان جولى وسميت من لندن أن يقدما للجمهور مجموعة عظيمة من الثعابين الحية.. ويتضمن البرنامج من الساعة الحادية عشرة صباحا حتى الثامنة مساء العروض الآتية:

١ - الحية المجلجة ذات الأجراس وهى الوحيدة التى تظهر فى فرنسا خلال الخمس والعشرين سنة الماضية.

٢ - أفعى الأناكندة الجنوب أمريكية.

٣ - أفعى الأصلة.

٤ - الحية الرقطاء.

٥ - الحية المبرقشة.

ويمكن أيضا إلى جانب تماسحين نيليين مشاهدة الساحر الهندى والعملاق الذى يبلغ طوله ستة أقدام وست بوصات ويبلغ من العمر ١٨ عاما.. ويتم إطعام الثعابين الساعة الثالثة بعد ظهر كل خميس.

وانتظر سان - هيلير مدير حلبة سيركه الجوال الخاص الإذن من باريس لركوب نهر السون متمعنا وذاهلا بنفسه في استمتاع بالغ في مجموعة ... «مدير مدرسة الطب البيطرى فى ليون الرائع ذائع الصيت حيث اكتشفت مسخا متعدد الأصابع فى أحد أنواع الخيول» .

وفى الوقت ذاته تنامى الحشد الكبير فى ساحة بلكور . فيما تقاطر الناس مصطحبين أفراد عائلاتهم وأصدقائهم لمشاهدة الزرافة فى نزهتها الصباحية والمسائية . وأصبحت الشرطة المكلفة بالحراسة غير كافية للسيطرة على الحشود وتعين تعزيزها بخيالة الجيش . ومن قبيل الحيطة رقى يوسف للمساعدة فى كبح الزرافة بإمساكه بحبل رابع .

كان عدد سكان ليون مثل مرسيليا يقترب من مائة ألف . ومع هذا كان يتوافر فى ليون ساحة عامة شاسعة مثل بلكور التى غصت يوم الجمعة بعد يومين من التغطية الصحفية والشفهية بثلاثين ألف شخص متلهفين على رؤية الزرافة ومن بينهم كانت شخصية محلية مشهورة «معمرة تبلغ من العمر ١١٣ عاما إنتظرت لساعتين فى صبر شديد على أريكة بالحديقة» . ولابد من

أن السيدين جولى وسميت كانا مشغولين بإخراج ثعابينهما من كسل ما بعد الأكل وتحريك المجلجلة نحو ثورة مدربة عليها متقنا من أجل جمهور أملا فى أن يتدافع فى طريقهما ذلك اليوم .

وظهرت الزرافة فى ساحة بلكور فى الساعة الحادية عشرة دون أن يعتريها القلق أو الارتباك نتيجة أكبر حشد جماهيرى متشوق تظهر أمامه قبل أن تصل فى باريس . وقيل : إنها التقطت بهدوء بالغ أوراق أشجار الزيزفون التى كانت تطل فوق رأسها لتذهل القريبين منها للغاية بلسانها الذى يجمع ما بين اللونين الأزرق والأسود ويبلغ طوله عشرين بوصة . وكالعادة فزعت خيول الحراسة من الزرافة لكن المشكلة هنا نجمت عن الخوف من الأماكن المغلقة والضيقة ، وانتاب الهلع أحد الخيول بعد أن حوصر بين الكائن الغريب وجحافل الحشود وزمجرت الزرافة ساحبة رعاتها وراءها ، وألقت الصحيفة باللوم على الشرطة لما أعقب من أعمال شغب بعد أن قامت الشرطة دونما اعتبار للحشود بملاحقة الزرافة لوقفها رغم سرعة إنطلاقها ودهسوا عدة أشخاص كان من بينهم خاصة صاحب المقام النبيل السيد سان - هيلير .

وقامت الزرافة بنزهة ثانية فى المساء وقعت بعدها حادثة أخرى بين من تبقى من الحشد .. ربما يكون قد خطر على بال المرء أنه لابد من أن حاكم مرسيليا الذى وجد نفسه فى غمرة ماحدث من تدافع في الصباح قد أدرك خطر وجود خيالة وسط الحشود التى تجمعت نتيجة الرغبة فى مشاهدة الزرافة ففى هذا المساء وبعد أن (غادرت الزرافة بلكور) . فقد حدث أن شب حصان مزمجرا وسط الحشد مما أسفر عن جرح عدة أشخاص كانت إصاباتهم خطيرة بدرجة أو بأخرى . وتغادر الزرافة فى السابعة صباح الغد .

ومر اليوم المقرر لركوبها نهر السون يوم السبت التالى للإضطرابات دون صدور كلمة واحدة من باريس ، وأيا ما كانت الأسباب فلم يرد وزير الداخلية مطلقا على رسالة سان - هيلير التى طلب فيها تغيير خطط نقل الزرافة .

وما يدعو للسخرية أنه كان لابد من أن يتجنب سان - هيلير ليون وحشودها لإراحة الزرافة إن لم يكن من أجل توقعه الإبحار مع الزرافة من هناك إلى شالون وفى رسالته بتاريخ ٢ يونيو إلى حاكم مرسيليا كتب يقول « لو لم أكن قد قدرت إمكانية نقلها بحرا

لكانت خطتى أن أعزلها هنا لأسبوع فى منطقة ريفية نائية » ، ومع ذلك ومن قبيل الوفاء بالوعد واصل سان - هيلير المسير برا عبر بورجندى ،، و ادعى « أن جراحه في ليون كانت عديدة أكثر منها خطيرة » لكنها فاقت معاناته من النقرس والروماتيزم المتدهورة بالفعل ، وقلقا على الزرافة ونتيجة معاناته هو نفسه فقد اختصر المسيرة اليومية ، وأيا كان مادار بخلده وهو يشاهد نهر السون قبالته عن يمينه على مدى نحو أسبوع فقد أخفاه حتى عن حاكم مرسيليا ، ويبدو أنه لم يكتب لأحد طيلة بقية الرحلة .

كان اليوم يوم أحد عندما غادرت القافلة ليون بعد واحد وعشرين يوما منذ أن قاد سان - هيلير سيركه الصغير خارجا من مرسيليا ، وتجاهلته باريس لكن كانت هناك فسحة من الوقت أمام الملك للتوجه إلى فونتينبلو .

الفصل الرابع عشر

الوفاء بالوعد

جاءت المعاملة الفظة الوحيدة على مايبدو تجاه الزرافة من زوجة الدوفين (الإبن البكر للملك) المدام دوقة انجوليم التى حال بروتوكولها القاسى دون قيام الملك بالتوجه لمشاهدة الزرافة ومن ثم طالت رحلتها بدون داع .

والمدام مارى – تريز – شارلوت دى بوربون التى ظلت تعرف باسم «سيدة القصر» طيلة حياة الكبر هى الإبنة القاسية كما هو مفهوم للملك لويس السادس عشر ومارى أنطوانيت ، فقد ظل زواج والديها غير مكتمل لسبع سنوات بسبب الألم المبرح الذى كان يعانيه الملك عند الإنتصاب بسبب السمك غير العادى لغرلته ، وأخيرا توجه شقيق زوجته إمبراطور النمسا متخفيا إلى باريس لإقناعه بإجراء عملية ختان غمر السرور بعدها قلوب الفرنسيين جميعا بعد أن حملت ملكتهم على الفور ، ومع هذا ورغم الآمال



ابتيان جوفروا سان-هيلير

الكبار فى إنجاب ذكر يرث العرش أصيبت حتى الملكة بخيبة أمل بعد أن وضعت أول مولودة لها أنثى عام ١٧٧٨ .

وفى صيف عام ١٧٩٢ كانت مارى - تريز لا تزال فتاة يافعة فى مقتبل العمر عندما هجم عامة الثوار قبل فجر العاشر من أغسطس على قصر تويليرى وذبحوا حراس القصر والخدم بل وحتى العاملين فى المطبخ . كانت مارى - تيريز فى الرابعة عشرة من عمرها عندما أعتقلت مع أفراد عائلتها فى ذلك اليوم وحل الشتاء ليعدم والدها ثم بلغت الخامسة عشرة عندما أعدمت والدتها بالمقصلة بعد تسعة أشهر . وظلت إبنتهما حبيسة لثلاث سنوات فى دير سابق مما دعا باريس إلى وصفها «بيتيمة المعبد» قبل أن تنفى لموطن أمها النمسا .

وفى العام التالى وبهدف تدعيم الموارد السياسية والدبلوماسية للبوربون تزوجت فى سن الثامنة عشرة من ابن عمها البالغ من العمر واحدا وعشرين عاما دوق انجوليم وهو أكبر أبناء أصغر أشقاء والدها الرجل الذى لم يكن يتوقع سوى قليلا حتى أواخر حياته بأن يصبح الملك شارل العاشر .

وعاشت ماري - تريز الأعوام التسعة عشر الأولى لحياتها الزوجية مع العائلة المالكة الفرنسية في إنجلترا . وإثر عودة الملكية عام ١٨١٥ بعد ربع قرن من الثورة الدامية والإمبرالية النابليونية كانت (سيدة القصر) أكثر أفراد العائلة المالكة تطرفا للملكية وأكثر الرموز الشخصية للملكية في فرنسا قاطبة ، كانت بدينة بدون أطفال تقترب من الخمسين من عمرها في عام وصول الزرافة إلى باريس .

وهكذا لم تكن ماري - تريز ملكة حتى النخاع فحسب لأنها سليلة ملوك البوربون من ناحية أبيها حيث والدها وأعمامها الإثنان كانوا ملوكا لفرنسا كما أن زوجها قريبها في الدم أصبح ذا حق لاينازع في وراثة العرش بل لأ نسب أمها يربطها برباط لاتنفصم عراه مع ستة قرون هي تاريخ آل هبسبورج . ويمكن إدراك مدى حساسيتها المفرطة للمسائل المرتبطة بالبروتوكول الملكي من اللمحة التي ندت عنها لزوجها لدى ورحيلهما عن فراش إحتضار عمهما الملك لويس الثامن عشر عام ١٨٢٤ . ومنذ تلك اللحظة بات زوجها يفوقها فجأة في المرتبة بإعتباره الدوفين الجديد وللمرة الأولى في حياتهما سواء كأبناء عمومة في الطفولة أو زوجين بعد

البلوغ تسمح «سيدة القصر» له بالسير أمامها . كان شارل فيليب دى بوربون الذى أصبح فيما بعد الملك شارل العاشر أصغر أربعة أبناء فى العائلة المالكة . وعندما كان شارل في العاشرة من العمر مات شقيقه الأكبر ووالده وأمه . ونشأ خمسة من النسل الملكى الباقى فى بلاط جدهم لويس الخامس عشر . وأصبح الأمراء الثلاثة ملوكا لفرنسا . وأعدمت الشقيقة الصغرى لشارل فيليب الأكبر الذى أصبح الملك لويس السادس عشر أثناء الثورة الفرنسية .

كان شارل فيليب فى بداية الثلاثينات من العمر عندما نفته الثورة ، وبلغ الستين تقريبا عندما سمحت عودة الملكية برجوعه إلى فرنسا وكان فى السابعة والستين عندما اعتلى العرش بينما كان فى الثانية والسبعين عندما أجبر على التنازل عن العرش والعودة إلى منفاه فى إنجلترا . كان فارع الطول أنيقا ووسيما مفرط اليد طيلة حياته . وفى الخامسة عشرة من عمره أثناه أحد وزراء جده عن تحمسه للجندية وقال له : «إنها لا تليق بأمير» . متع نفسك بدلا منها . نل ماشئت من الديون ولسوف نسددها» .



ماري تريز

ورغم زواجه بترتيب ملكى من إبنة ملك سافوى ظل شارل - فيليب مخلصا لزوجته طيلة . حياته فقد رافقته تلك المرأة لويز دى بولا سترون إلى المنفى عام ١٧٨٩ . وتوفيت فى إنجلترا عام ١٨٠٤ . وعاش بعدها لاثنين وثلاثين عاما كرس نفسه خلالها للوفاء لذكراها . وقامت مارى تريز على شئونه بعدها بقية حياته .

وكملك تأثر شارل العاشر بالبساطة العسكرية فى حياته اليومية . ولم يكن يهوى أكثر من أن يمضى اليوم متنكرا فى صيد الأرانب فى الغابة الملكية فى فونتينبلو . وكم كان يدهشه وهو يرتدى ثيابا واحدا من العامة ويسير على قدميه لا يرافقه سوى كلبه أن يقبله الصيادون كواحد منهم . كان أشبه بالغريب لدرجة أن طلب منه فى إحدى المرات أن يكون عرابا (أبا عند التعميد) فى حفل تعميد ولم يتعرف حتى الكاهن على هذا الرجل الذى أسمى نفسه بالسيد ليروا شارل .

وظل وزراء الملك يطلعونه على تقدم رحلة الزرافة من مرسيليا إلى باريس . ومع تزايد الحشود والإثارة حولها فضفض الملك شاكيا بأنه سيكون آخر شخص فى فرنسا يرى الزرافة . وكان هذا بالضبط هو البروتوكول الذى طالبت به «سيدة القصر» التى

جادلت بأن المقام الملكى يلزم جلالته بالتروى وانتظار تلقى تلك الهدية المقدمة من حاكم أقل منه مقاما لا الهرولة لتحيتها .

وفى طريقه من ليون لم يتلق سان - هيلير أية إجابة عن طلبه بتغيير الطريق وإراحة الزرافة فى فونتينبلو .

وواصلت القافلة مسيرتها عبر بورجندى صاعدة الطريق الرومانى القديم ونهر السون عن اليمين وعن اليسار سلسلة التلال التى تتخللها الكروم التى غرستها فى البداية فيالق القيصر التى استقرت هناك عقب تقاعدها بعد غزو جول فى القرن الأول بعد الميلاد - ثمانون ميلا مستقيمة عبر القرى التى تشتهر فرنسا بأسماء خمورها .

وفى شالون يبطئ الطريق فى صعوده بالاتجاه الشمال الغربى بعيدا عن السون ، وتبرز الكروم متسلقة الأخشاب وأسيجة الشجر والمراعى الخضراء بقمم الجبال البعيدة . وبعد ليون حيث إنتهت مرسلات سان - هيلير المتبادلة لم يرد أى تسجيل لتوقف الزراف ليلة بليلة . وتضاعفت آلام النقرس والروماتيزم على سان - هيلير الآن مع بداية إرتفاع نسبة البولينا فى الدم مما

كان يضطره أن يمضى مزيدا ومزيدا من الوقت كل يوم مع الحيـــوانات القابعة فى أقفاصها على العربة .

ويصور غلاف هذا الكتاب شاهد عيان يرسم لوحة للقافلة على الطريق عبر الجبال الواقعة بالقرب من أرناى - لو - دوك .

وتظهر الزرافة فى اللوحة تخطر بحيوية ومرح يخدمها رعاتها وقبلها بمسافة يجلس سان - هيلير شخصية غير واضحة تماما بمؤخرة المركبة يرنو وراءه وفى هذه المنطقة يخترق الطريق الغابات هبوطا وصعودا وهبوطا للفاصل المائى لنهر السين المتدرج . ولا تعكس اللوحة حقيقة التعب العام الذى ألم بالقافلة بعد ليون . فقد دبت المشاحنات بين الرجال تلك المشاحنات التى وصفها سان - هيلير لاحقا رسميا للمتحف وأسر بها خاصة إلى حاكم مرسيليا . ولا تتضمن روايته الرسمية أية أسماء : «فمن الضرورى تنظيم مهام الرجال من مختلف الجنسيات والأديان واللغات والطباع وقيادتهم فى تناسق لاستنهاض طاقتهم وحرفتهم لخدمة الزرافة والتدخل بنزاهة غالبا فى {معاركهم} المريرة ومشاحناتهم المستمرة» .

لكن فى كتاباته من باريس بعد أسابيع لحاكم مرسيليا حدد سان - هيلير المشكلة فى بارتليمى . وعلى نقيض الإمتنان المؤثر الذى أبداه سان - هيلير تجاه حسن وعطير فقد وصف بارتليمى بالانتهازى المتبجح المولع بالجدل .

ونعرف أن القافلة توقفت فى أسير لأن ابنه البالغ من العمر واحدا وعشرين عاما والذى انتابه قلق شديد قابله هناك وهو فى طريقه إلى الجنوب وكتب إلى أمه فى ٢٣ يونيو :

إزداد قلقى ما بين جوين وأسير . ووحيدا فى المركبة انتابتنى نوبة نشيج قوية أنا الذى لم أبك مطلقا : فقد اكتشفت عدم علم أى سلطة فى جوين بوصول الزرافة . وراودتنى فكرة أن أبى لم يستطع تحمل الرحلة ولم يصل إلى أسير . ولم أعرف إلا قبل قليل من أسير أن الزرافة هناك وتوجهت فور وصولى إلى حيث تبيت : لم يكن أبى موجودا هناك لكن سرعان ما عرفت مكانه واصطحبنى أحدهم إليه ووجدته - شاحبا لكنه بدا مع ذلك فى صحة جيدة ... ولم أكد أصل حتى حان موعد الرحيل للعشاء فى بيت

المونسينيور الذى لا أعرفه : وجلست على الطرف الآخر من المائدة التى يجلس عليها أبى .... وطيلة الوقت انتابنى إحساس بالرغبة فى البكاء ... لأنى وجدت نفسى معزولا عنه فى اللحظة التى إلتأم فيها شملنا وللتفكير فى أنه سيغادرنى صباح الغد .

وفى الوقت ذاته حفز سقوط أثينا القوى الأوروبية على التدخل فى اليونان . وفى ٢٦ يونيو ذكرت الصحف أن فرنسا تحالفت مع بريطانيا وروسيا لتوجيه إنذار نهائى للسلطان العثمانى ... وفى النهاية مست صرخات الألم الدامى لليونانيين شغاف قلوب الملوك المسيحيين» وسيبحر أسطول مشترك من السفن الحربية للدول الثلاث إلى اليونان «للفصل بين المتحاربين» وفرض وساطة أوروبا .

وفيما كانت فرنسا وبقية أوروبا ترد على أنباء تلك الحملة الصليبية التنويرية ضد الأتراك كانت الزرافة والقافلة قد وصلت السين عند مونترو حيث لم تنحرف غربا كما أمل سان - هيلير إلى القصر فى فونتينبلو .

وعلى بعد ثلاثين ميلا ويومين لاقحا اقتربوا من باريس بمسافة كافية بما سمح لصديق سان - هيلير ويدعى مارى - هنرى بيلى

المعروف باسم ستاندال تنظيم رحلة نهرية عبر السين لمشاهدة الزرافة . وفى الثلاثين من يونيو وعلى مهل أبحر بيلى ومرافقاته الشابات حيث كان يتودد إلى بنت زوجة كوفييه أعظم زملاء ومنافسى سان - هيلير التى كانت تتطلب رفيقا مثل الزرافة على متن قارب بخارى نحو فيلنيف - سان جورج حيث كان من المتوقع أن يصل سان - هيلير ذلك المساء لكن القافلة وصلت قبل الموعد المقرر بيوم وكانت تدخل باريس بالفعل فى تمام الخامسة بعد ظهر ذلك اليوم .

واستغرقت الرحلة من ليون إلى باريس واحدا وعشرين يوما بما فى ذلك يوم راحة . وقبل ذلك كانوا قد ساروا أربعة عشر يوما من سبعة عشر يوما من مرسيليا إلى ليون . وبإجمالى سبعة أيام راحة على الطريق تكون الزرافة قد قطعت مسيرة ٥٥٠ ميلا من مرسيليا إلى باريس فى واحد وأربعين يوما . وأبطأ سان - هيلير المسير قبل الوصل إلى ليون لكن على مدار الرحلة كلها قطعت الزرافة ستة عشر ميلا فى المتوسط يوميا .

وعندما وصلوا باريس جاء التعليق الوحيد لسان - هيلير فى تقريره الرسمى المحبب:

لم تتغير صحة الزرافة أثناء الرحلة «بل على العكس» إزدادت قوتها بشكل ملحوظ ووضعت المفلون أثناء الرحلة فى لابالو وتحمل الرضيع الرحلة بشكل جيد.

لكن الزرافة كانت هى المستفيد الأساسى من الرحلة. فقد زاد وزنها. وتحددت قسمات عضلاتها وأصبح غطاؤها أكثر إحكاما ولمعانا لدى وصولها إلى هنا عما كانت لديه فى مرسيليا. ويبلغ طولها حاليا ١٢٫٢ قدم. وأصبح سلوكها أكثر ثقة فلم تعد تتمنع عن شرب اللبن أمام الغرباء. كما أن لطفها بملاعبتها للمفلون الصغير الذى حملته الزرافة على ظهرها «فيما كان يستريح قبالة قدمها» خير شاهد ليس على لطفها فقط بل على كياستها أيضاً.

الفصل الخامس عشر
قمة السعادة

وضعت الزرافة مؤقتا فى صوبة زجاجية فى ساحة حديقة الملك لو جاردان دو روا التى أعيد تسميتها بحديقة النباتات بعد إلغاء الملكية نهائيا عام ١٨٤٨.

كان الملك يبعد تسعة أميال يطل على باريس من قصره فى سان - كلو فقد أراد رؤية الزرافة وصدرت الأوامر للقوات لحراسة مركبته أثناء توجهه إلى لو جاردان دو روا يوم الخميس التالى.

وفى تقريره الرسمى كتب سان - هيلير أن صحته أسوأ بكثير من الزرافة: فأمام المهام الكثيرة نال منى الإجهاد فى النهاية. وقبيل إنتهاء الرحلة أصابنى مرض بالغ الخطورة.. وحدد المرض لحاكم مرسيليا بأن احتباس البول نتيجة إنسداد مجرى البول واستمر تعافيه منه لعدة أسابيع لا حقة.

ولم تكن لهفة الملك ولامرض سان - هيلير بل وحتى حقيقة أن الزرافة قطعت مسافة ٥٥٠ ميلا تعنى شيئاً لسيدة القصر. وعلى

حد كلمات سان - هيلير نظرت مدام الدوفين للمسألة بشكل مختلف وكانت تعتقد أن الأكثر تشريفا للملك هو البقاء وعدم الذهاب بنفسه:وجاءت «إلى لو جاردان دو روا».. وبعد أن استجوبتنى أتخذت قرارها وهكذا تغيرت الخطط الملكية: ففى صباح التاسع من يوليو يجوب موكب الزرافة المدينة إلى سان - كلو حيث يستقبلها الملك.

وغصت الشوارع بالحشود فى ذلك اليوم وتتبعوا الركب فيما اصطحب سان - هيلير وزملاءه فى المتحف وبارتليمى ويوسف وعطير وحسن الزرافة فى ظل حراسة الفرسان الملكية عبر باريس للقاء الملك....

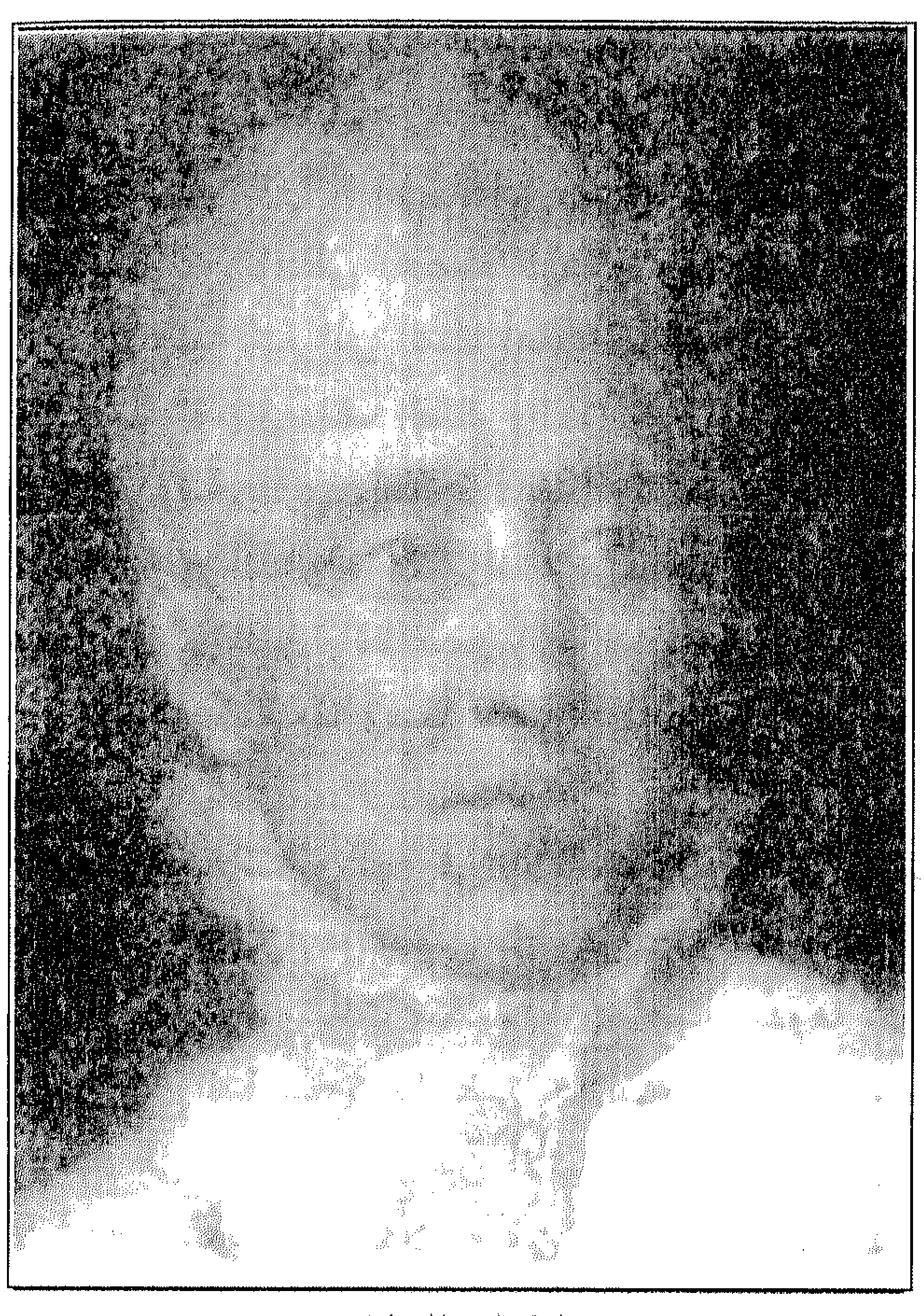
ولعل ما بين سطور الرواية الصحفية يحمل تفسيرا لما حدث من معاناة من دون مبرر:

بالأمس وبعد أن غادرت الزرافة باريس فى السادسة صباحا فقد وصلت فى العاشرة صباحا إلى الصوبة الزجاجية «خارج القصر» فى سان - كلو واقتيدت هناك عبر التروكاديرو. ورافقها حشد من المتفرجين.

«ورافقها أيضاً» وفد المعهد المؤلف من السيدين كوفييه وسان - هيلير وجميع أعضاء إدارة لو جاردان دوروا لتقديم الزرافة إلى الملك وشرح عاداتها وطبيعة شخصيتها له. وحظى أعضاء الوفد بشرف تقديم معالى وزير الداخلية لهم إلى الملك أمام الجماهير.

وعند الظهر دلف الملك والدوفين ومدام الدوفين والمدام دوقة بيرى وأميرة فرنسا وتلاهم كامل أفراد البلاط «إلى الخارج» وتشرف السيد جوفروا سان - هيلير بتقديم هدية باشا مصر إلى الملك مع كتيب أعده عن الزرافة متضمنا وصفا لقصة هذا الحيوان بكل دقة وحرص.

وأبدى جلالته رغبة فى رؤية هذا الحيوان الفريد من ذوات الأربع وهو يمشى بل وهو يعدو، كان البلاط بكامله حاضرا وكانت مشيتها وخاصة عدوها غير عادى بكل المقاييس. وأمضى جلالته أكثر من نصف ساعة فى الاستفسار من الأكاديمى الضليع. وبدا الارتياح الشديد على جلالته من ردود «سان - هيلير» وتفضل بإظهار هذا الارتياح له.



شارل العاشر

وفى الثالثة بعد الظهر عادت الزرافة إلى باريس ووصلتها قوية بسلام فى موكبها . وتبعها حشد كبير من المتفرجين على طول الطريق حتى لو جاردان دو روا. هذا ناهيك عن أدائها الرائع فى العدو الذى سجل ثمانية عشر ميلا فى اليوم من الساعة السادسة صباحا حتى السابعة مساء أى لمسافة أطول من أى أيام سفرها الأربعة والثلاثين على الطريق من مرسيليا. وبالطبع فإن رسالة سان - هيلير للحاكم تروى المزيد:

جرجرت أقدامى للوصول إلى سان - كلو وكل إهتمامى منصب على آلامى أسائلها ماذا يجب أن أفعل - إذا تعين على أن أخطوا إلى الأمام أو أقطع خطوة للخلف - وتحاملت على نفسى ويبدو أننى استطعت تحمل عبء الوجود «مع الملك» الذى وقَع علىَّ بالكامل والذى كان يمكن أن يشاركنى فيه بعض زملائى وكانوا حضورا جميعا. لكن الملك الذى لفتت مدام الدوفين أنظاره إلى تحدث على مهل معى لمدة

ساعة كاملة على انفراد وسر كثيراً بالتفاصيل وأفكار تنظيم الحيوانات التى عرضتها في ردودى. واستفسر الملك عن الطريقة التى بدأت بها مهمتى والتى هيأت لى الفرصة للحديث «عنك أنت فيلنيف بارجمون» وأبلغته بغزارة وعمق مشاعرى تجاه الحفاوة التى «أحطمونى» بها فى مرسيليا. «وخلال العرض» استعرضت الزرافة كل ما لديها وكل ما تستطيع من لباقة.. وأراد الملك معلومات مفصلة عن الفريق الذى تولى رعاية الزرافة وذكرت له حسن الذى سبق واقتاد زرافة ذكرا إلى الآستانة، والزنجى عطير الخادم السابق للسيد دروفيتى، وذهب «الملك» ليرى وزير الداخلية ليأمره بإرسال ألفى فرنك إلى حسن وألف فرنك إلى عطير. سلمت المبالغ إليهما وتلقياها بكل قناعة ورضى. أما الراعيان الآخران بارتليمى والفتى الزنجى يوسف فسيحصلان على شكر فى «الثانى عشر من يوليو» من ادارة لوْ جاردان دو روا. وسوف تؤمن لهما وسائل كافية للعودة «إلى مرسيليا»..

وسيحمل البريد إليك الكتيب الذى كتبته للملك ولم أطبع منه سوى ثلاثين نسخة.. ويعمل فنانون جاهدون لاستنساخ صور طبق الأصل للزرافة.

وهكذا صارت الزرافة آخر صيحة فى باريس. ففى الطريق من مرسيليا أطلقت القرى اسم الزرافة على الشوارع والميادين تخليدا لمرورها. وحتى الحانات والبارات التى لم تكن تقع على طريقها سميت باسمها فيما عاد أصحاب الممتلكات فى الأقاليم فى مختلف أنحاء فرنسا الذين سمعوا أو شاهدوا الزرافة فى حديقة الحيوان فى باريس إلى مسقط رأسهم ليطلقوا اسم الزرافة على منشآتهم.

وبعد أن استقبلها الملك وضعت الزرافة فى عرض عام يومى فى لو جاردان دو روا. وخلال الأسابيع الثلاثة الأخيرة من شهر يوليو ١٨٢٧ زار «٦٠» ألف شخص لو جاردان دو روا لإمتاع أعينهم بالزرافة. وسرعان ما تحولت لمادة للأغانى والموسيقى والشعر والاستعراضات المسرحية الفكاهية والسخرية السياسية المجهلة التى تنتقد الرقابة التى يفرضها الملك على الصحافة. وعلى نقيض رفيقتها فى لندن التى لم تعمر طويلا، أصبحت الزرافة أداة




تقديم الزرافة إلى الملك شارل العاشر في سان-كلو

للسخرية الصحفية لكنها لم تكن مادة لها على الإطلاق. فقد ولعت بها باريس أيما ولع.

وإعتاد الأطفال الذين يلعبون فى حدائق باريس على شراء كعك الزرافة. وصففت أمهاتهم شعورهن فى شكل تسريحة الزرافة كان الشعر يرتفع معها عاليا لدرجة أضطررن معها للجلوس على أرضية مركباتهن. وفى ذلك الصيف أعلنت صحيفة النساء والموضة عن عقد الزرافة وهو عبارة عن شريط رفيع يتدلى منه قلب قرنفلى أو دلاية صغيرة للنساء على شكل الحجاب الذى شوهد يتدلى من رقبة الزرافة فى لو جاردان دو روا.

وكانت أكثر ألوان الموضة ذيوعا فى ذلك الموسم هى بطن الزرافة وزرافة الحب وزرافة المنفى وارتدى الرجال قبعات وأربطة عنق زرافية واحتوت مجلة اليوم على ارشادات لرجال الأناقة حول كيفية ربط كرافتة الزرافة.

واستشرى الولع بالزرافة فى كل مكان وفى شئ – فى المنسوجات وورق الحائط والآنية والحلى والصابون والآثاث وفن تشذيب الأشجار – وفى كل مكان وظفت بقعها المميزة أو رقبتها

MUSEUM ROYAL

D'HISTOIRE NATURELLE

Billet d'Entrée

pour voir

LA GIRAFE.

Les lundi, jeudi et Samedi de 1h à 3h

Bon pour [illegible] personnes

Le Professeur administrateur

[illegible]

تذكرة دخول لمشاهدة الزرافة في حديقة النباتات

الطويلة حيثما أمكن، وسمى الكلافهارب حديث الاختراع حينذاك وبيانو الزرافة.. وكانت أنفلونزا شتاء ذلك العام هى أنفلونزا الزرافة، وتساءل الناس عن المرض.. وكيف ينتقل إلى الزرافة؟.

كان أحد زملاء سان - هيلير عالم الأحياء الطبيعية بوروا دى سان- فانسان نزيلا بسجن المديونين بباريس فى ذلك الوقت والتمس من المحكمة باسم العلم منحه إجازة لرؤية الزرافة. وقوبل طلبه بالرفض. لكن سقف سجنه كان يطل على أعلى نقطة فى لو جاردان دو روا حيث رتب له أصدقاؤه بالمتحف وضعا للزرافة يمكنه من رؤيتها بالتليسكوب.

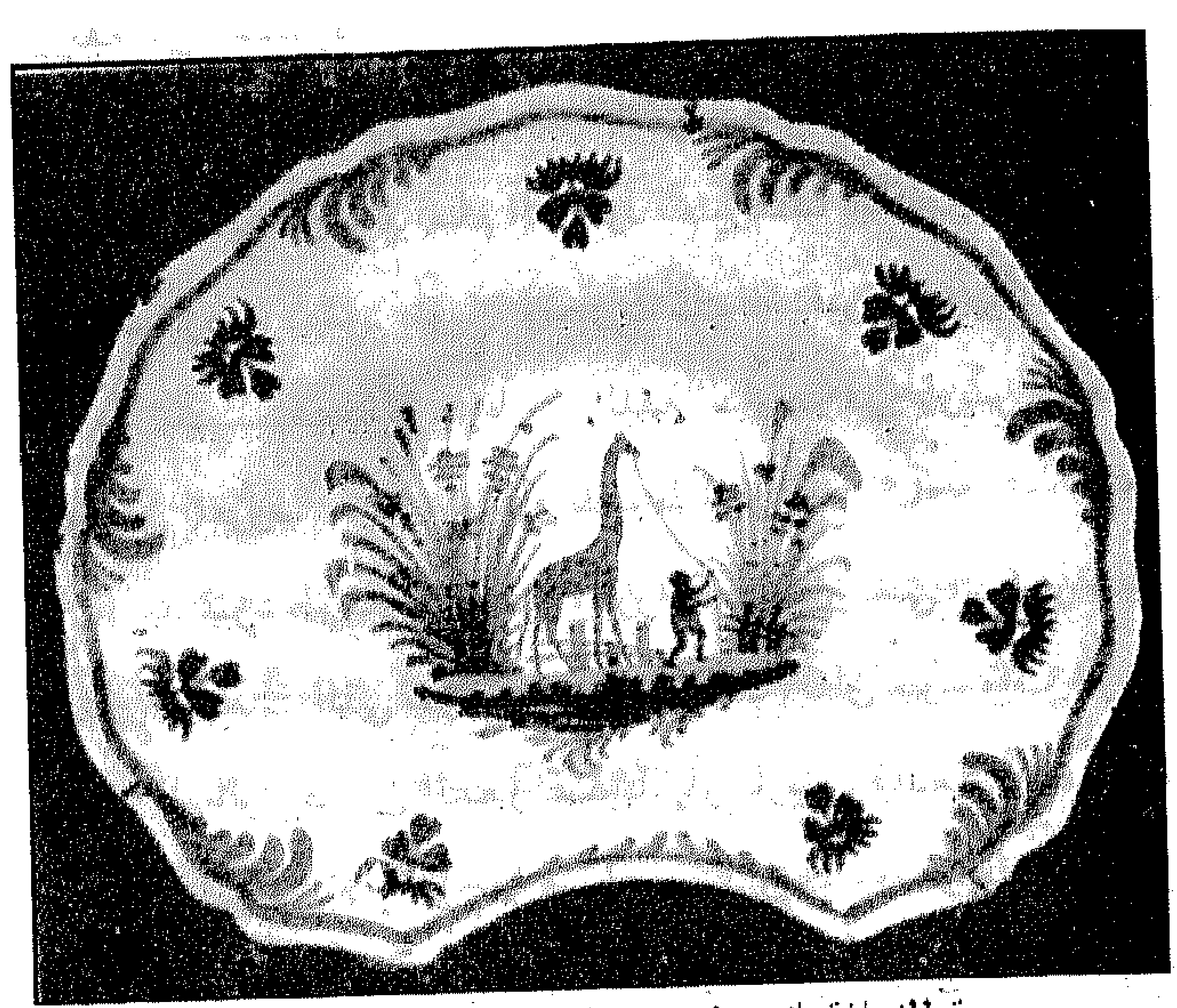
وبقى حسن فى باريس حتى نهاية أكتوبر. وفى طريق عودته إلى مصر سلم رسالة من سان - هيلير إلى حاكم مرسيليا جاء فيها.

إن حسن يغادرنا محملا بهدية الألفى فرنك التى أعطاها له الملك لقد عاملناه بكل تقدير «و» كان يستحق اهتمامنا ورعايتنا: لأنه ظل ملازما لحيوانه بكل ود وإيمان. إنه يغادر وحالته البدنية سيئة وأعتقد

أنه يعانى من اكتئاب مزمن. كان الله فى عونه بطريقة أو بأخرى. وأعطيناه «٢٢٦» فرنكا بواقع فرنك عن كل فرسخ فى رحلة العودة إلى طولون «إضافة إلى فرنكات الملك الألفين». وسأكون ممتنا سيدى لو أكدت له المشاعر التى أبديناها له بالفعل».

وظل عطير ملازما للزرافة وأقاما معا فى واحد من المبانى السداسية الرائعة معماريا والمؤلفة من دورين فى لا روتوند. كان المبنى المعمارى المميز قد اكتمل عام ١٨٠٥ كشكل معمارى منقول عن الصليب الخماسى لوسام جوقة الشرف الفرنسى - بما يشكل صلة أخرى بنابليون الذى ابتدع الوسام عام ١٨٠٢ وصمم الصليب بنفسه لتكريم التفوق والامتياز فيمن يلمس فيه هذا التميز فى إطار نواياه خلق أرستقراطية الإنجازات.

كانت أرضية شقتها الشتوية كما وصف سان - هيلير بيت الزرافة لحاكم مرسيليا مغطاة بالبركيه وعزل البيت أيضا بفسيفساء رائع من حصير القش المعلق على الجدران. ووفرت مجموعات الأبواب المزدوجة مداخل إما للخروج من أول الدخول إلى وسط المبنى الذى كان يعتمد فى تدفئته على المواقد وعلى



صورة للزرافة التي ظهرت على المنتجات في كل مكان

حرارة أجساد الحيوانات الأخرى تبعا للحاجة. إنه بحق مخدع سيدة صغيرة ويصل عطير إلى سريره بواسطة سلمين.. وتتلاقى الشخصيتان - الزرافة وعطير - ببعضهما رأسا برأس بمكان مرتفع من الحظيرة.

واستمتع عطير بالشهرة التى حظى بها كراع للزرافة ويستعرضها كل يوم أمام الحشود ثم يرعاها علانية بتمشيطها بمشط مربوط بعمود طويل. وتحولت تلك الشعيرة اليومية المشرفة لكنها مجهدة لتصبح جزءاً من اللغة الدارجة فى باريس كتعبير عام عن العزوف. لتفعل هذا أو لتمشط الزرافة».

وبعد فترة طويلة ظل عطير والزرافة يعيشان على الذكرى وعلى صدى الكلمات التى تفوه بها من شاهدها. كان جوستاف فلوبير طفلا فى الرابعة من العمر عندما زار باريس قادما من مسقط رأسه رواين وشاهد الزرافة فى لو جاردان دو روا، وبعد أكثر من ثلاثين عاما كتب فى رسالة إلى صديقته الروائية الفرنسية جورج صاند بأنه تعب مثلما تعب الأتراك من الزرافة. وذهل سان - هيلير من سمعة عطير الأخرى كزير نساء مبلغا حاكم مرسيليا: إنه نبيل فرنسى حقيقى سعيد الحظ: فهو يفجر الحديث فقد طلبت

المدام دوقة بيرى أن أروى لها بعض مغامراته وما تعرض له من عثرات، وبين الأميرات تدخل تلك الأشياء من أذن وسرعان ما تخرج من الآخرى.

وشملت أبرز الأحداث التى عاشتها فرنسا ذلك الصيف جرف المياه لحوت على شاطئ أو ستيند على الساحل البلجيكى ووصول ستة هنود أو ساج من أمريكا لباريس، وذكرت إحدى الصحف:

نال رئيسهم ضئيل الجسد أمير الدم مكانته فى عدة معارك وسلخ فروة رأس عدد من أعدائه «ويبدو أن موضع سره «شاب شجاع يدعى» الروح السوداء و«عندما وصل » متوحشو الميسورى إلى لو هافر... تدافع الناس واحتشدوا بأعداد لا تزيد ولكنها لا تقل عن حشود الباريسيين الذى تجمعوا من أجل الزرافة وذهب الرئيس مع رفاقه إلى المسرح.. فى ملابس مكشوفة أقل قليلا «مما كانت عليه أثناء اليوم» . وظهر الضيق على سيماهم ويبدو أن العرض لم يرق لهم كثيراً، والنسوة الهنود أشد تحملا ويظهرن أكثر لطفا. وشوهد الفنانون يرتدون أزياءهم لإرسالها إلى باريس

بدون شك. ولسوف نرى عما قريب موضة الميسورى.

وفى باريس وصف سان - هيلير الهجوم الهندى على شباك تذاكر الزرافة قائلا: تهددنا بأن يجتاحنا الأوساج، والبدعة السائدة الآن هى رؤية الرجال الحمر لكن الزرافة لا تزال مرغوبة للغاية..

وكان الروائى الفرنسى أونوريه دي بلزاك «الذى أهدى روايته الأب جوريو لصديقه سان - هيلير» واحدا من مغرميها ونشر كتيبا بعنوان «محاورة الزرافة مع رئيس الأوساج الستة بمناسبة زيارتهم إلى لو جاردان دو روا ترجمها من العربية مترجم الزرافة، واشترى أربعون ألف شخص تذاكر لمشاهدة الزرافة فى شهر أغسطس. ويشكل عدد زوارها المائة ألف خلال شهرى يوليو وأغسطس مجتمعين عند سكان باريس قاطبة.

كان هذا صيفا مختلفا بكل المقاييس عن المواسم السابقة بالنسبة للسيدين جولى وسميت. ففى ليون ماتت واحدة من «حياتهم» ممادفع مغامريهم البريطانيين إلى تأجيل اختتام اليوم بهدف السماح للجماهير برؤية الحيوان بطريقة لم تكن لتتيسر وهو

لا يزال على قيد الحياة ومنح الفرصة للهواة لدراسة هذا النوع الرهيب من الزواحف دون تعرضهم للخطر. وفى نهاية يوليو منع قاض جزئي السيدين من دخول سويسرا بدعوى أن زواحفهم الجوالة ترمى فقط لخدمة مضاربات أصحاب الأملاك وإشباع فضول المشاهدين.. وأشار حكم القاضى أيضاً إلى أن الحية المجلجلة.. صغيرة ولو تمكنت من الهرب فإنها يمكن أن تختفى بسهولة وتحيا وتتكاثر فى مناطقنا.

وفى ٦ يوليو وخلال أسبوع وصول الزرافة الشهير إلى باريس وقبل ثلاثة أيام من استقبال الملك لها فى سان - كلو وقعت القوى الأوروبية معاهدة ضد محمد على والأتراك. وفيما سفن التحالف في طريقها إلى اليونان. أبحر دروفيتى إلى فرنسا فى مهمة من أجل محمد على: فرغبة منه فى أن ينأى بنفسه عن سادته الأتراك عرض والى مصر سحب قواته من اليونان مقابل تحالف فرنسا معه ضد السلطان العثماني.

وفى مصادفة مذهلة ككل ما هو مرتبط بالزرافة «ويبدو أن دروفيتى وحده القادر على ترتيبها» كانت باريس فى أوج ولعها بالزرافة عندما وصل قنصل عام فرنسا قادما من مصر فى أواخر يوليو.

ولم تكن مهمته الدبلوماسية مجدية. فرغم عرض الوالى بتغيير التحالفات فقد تأهب أسطوله للإبحار إلى ميناء نافارين اليونانى لتعزيز جيشه الذى يقوده ابنه. وفى أوائل سبتمبر رفض السلطان إنذار الوساطة الأوروبى وواصل الحرب وفى نافرين تجاهل إبن محمد على وكان الكولونيل سيف رئيس أركانه مطالب التحالف بوقف إنزال الجنود والإمدادات. وفى العشرين من أكتوبر أبحرت السفن الأوروبية المشتركة إلى الميناء ورغم تفوق السفن المصرية والتركية عددا فقد تمكنت السفن الأوروبية من تدمير الأسطول المصرى. بدأت المعركة الساعة الثانية والنصف بعد الظهر وبحلول السادسة فقدت تركيا اليونان إلى الأبد.

لكن دروفيتى أبلى بلاء حسنا للغاية لنفسه وبزيارته لعطير والزرافة أمتع الحشود فى لو جاردان دو روا وهنأ سان - هيلير على نجاح حديقة الحيوان وأكثرها إفادة. وبالمقابل اعترف سان - هيلير بالدين العظيم الذى يستشعرون بأن العلم مدين به لدروفيتى لهذه الزرافة التى لم يكن هناك بعد قوتها وحيويتها وما يمكن تمنيه.

وأفاد دروفيتى نفسه بالحصول على امتنان الملك ببيعه ثانى مجموعاته من الآثار المصرية التى جمعت حديثا ولحسن الحظ

تواكبت مع وصول الزرافة إلى باريس، وضمن شامبليون نيابة عن اللوفر الشراء بتوصية عليا. وامتد تسديد كامل الثمن الضخم - الذى لم يكن من المتيسر حتى بعد تقييم الخبراء أن يتجاوز مبلغ ١٥٠ ألف فرنك - للسنوات الثلاث التالية كان دروفيتى قد تقاعد خلالها من منصبه كقنصل عام فرنسا فى مصر.

وعاد دروفيتى إلى الأسكندرية ذلك الخريف بنصر سخى حاملا معه لوحة مزخرفة فى إطار عبارة عن صورة للزرافة هدية شكر من سان - هيلير والمتحف إلى الوالى. وأعطى سان - هيلير لدروفيتى أيضاً آخر نسخ كتيباته الثلاثين عن الزرافة واصفا هذا العمل بأنه، ربما لا يكون من أجل الباشا الذى لا يجيد قراءة أى شىء بل ربما تستطيع إعطاءه لأحد فى مصر قد تريد أن تسعده بالاستمتاع بحيازته.

وفى العام ١٨٣٠ عجل تضييق شارل العاشر الخناق على الصحف بالرقابة بوقوع الأحداث التى أجبرته على التنازل عن العرش. أما سيدة القصر التى كان بروتوكولها الصارم سببا فى سير الزرافة وسان - هيلير مسافة ثمانية عشر ميلا بدون مبرر

جيئة وذهابا عبر باريس فقد رافقت الملك وزوجها وكل أفراد العائلة والحاشية للعودة إلى المنفى فى بريطانيا.

ومن بين المنفيين مع الملك كان البارون داماس وزير الشئون الخارجية الذى رفض دفع نفقات الزرافة في فرنسا. وقد خدم هذا النبيل والجنرال السابق وزيرا للحرب فى عهد الملك لويس الثامن عشر. وفى بريطانيا أصبح معلما للدوفين الآخير الملقب منة الله ابن الأعوام الستة الذى استقبل الزرافة أمام القصر ولم يصبح مطلقا الملك هنرى الخامس.

ورغم العجز السياسي القاتل الذى ينطوى على مفارقة تاريخية للملك شارل العاشر بشأن الحلول الوسط إلا أن رعاياه السابقين باتوا ينظرون إلى عهده نظرة حنين إلى الماضى. فبعد رعب الثورة والحروب المدمرة للإمبراطورية النابليونية فقد تولى هذا الأنيق العجوز الذى كتبت له النجاة الحكم فى عصور زاهية. فقد تسرب التنوير للناس فى الشارع شيئاً كما أن مجرد وجوده على قيد الحياة أمر ساحر بما فيه الكفاية. فلم تتحرك الجماهير من أجل الدم بل تلهفت على رؤية «متوحشى الميسورى» أو الزرافة مع العرب.

ثم جاء وقت – وقت للملك ليكون ساحرا بطريقة قديمة ووقت متع رعاياه فيه أنفسهم – وقت قام فيه حتى ستندال المؤرخ للمجد

النابليونى وزوال وهم إعادة الملكية بالإبحار ليوم عبر السين بزورق يحمل فتيات شابات ورغم أن مشاهدة الزرافة فاتتهم إلا أنهم تمتعوا على أية حال.

وكابد ستندال مرارة النفى الاختيارى مع الإنهيار النابليونى عام ١٨١٤، وفى عام ١٨٢١، توفى نابليون وعاد ستاندال إلى وطنه فرنسا...

وتعافى سان - هيلير وتواجد فى لو جاردان دو روا عام ١٨٣٩ عندما وصلت زرافة ثانية لترافق الزرافة الأولى.

وكف بصر سان - هيلير قبل عام من تقاعده عام ١٨٤١ بعد سبعة وأربعين عاما كعالم الحيوان المؤسس للمتحف. وتوفى عن عمر يناهز الثانية والسبعين عام ١٨٤٤ قبل الإنقلاب الشمسى - هذا الوقت من شهر يونيو عندما واجهت رحلته مع الزرافة أقصى صعوباتها. وبعد عقود من لقائهما فى أسير وصف ابن سان - هيلير جنازة والده: تركت الجنازة إنطباعات مؤثرة لدى أصدقاء العلم وهذا العالم. لم تكن جنازة بقدر ما كانت ترسيما لواحد من عظماء قرننا.. أعظم وأبلغ للنبوغ وللحقيقة..

والغريب - وربما يكون مؤشرا أو لا يكون عن حقيقة مشاعر أسرة سان - هيلير لمعاناته مع الزرافة - أنه لم يرد لها ذكر فى تأريخ ابنه لسيرة حياة والده..

خاتمة

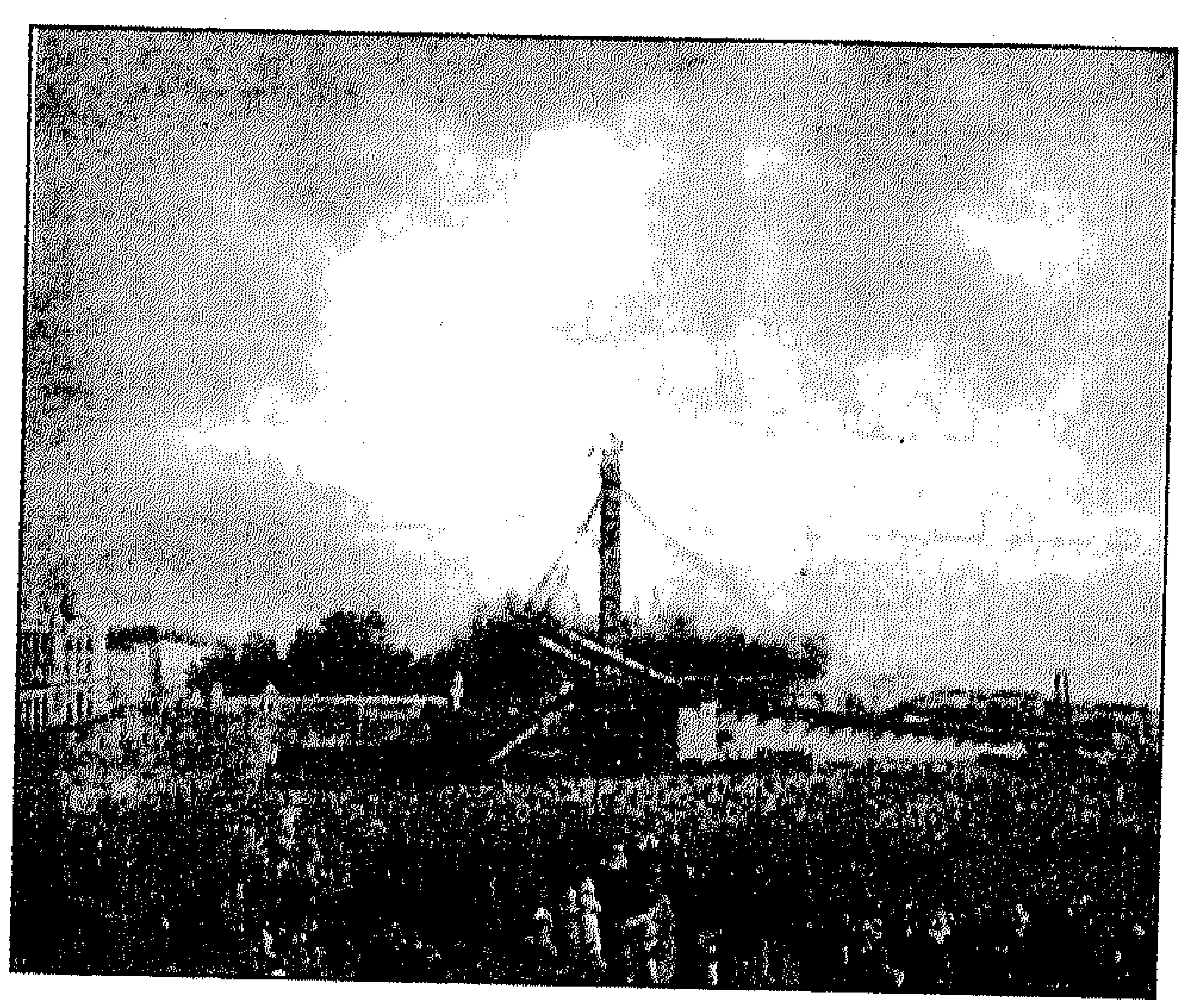
لا تزال أسراب طائر اللقلق تحلق حول معبد الأقصر هذا المعلم الخالد فى رحلتى الهجرة السنوية من أوروبا وإليها .. وعندما مرت الزرافة ورفيقتها قبالة المعبد ربيع عام ١٨٢٦ كانت تنتصب مسلتان فى بهوه الخارجي. ونعرف الآن أن الكتابات الهيروغليفة المنقوشة على المسلتين تعود لعهد الملك رمسيس الثانى - ملك كل الأراضى التى تقع تحت قدميه - كما أن قمتيهما تمثلان أشعة الشمس ليس وهى تشرق بل وهى تنتشر من القمة نحو الأرض، كانت المسلتان رابضتان معا بالمعبد تحيطمها الرمال والمخلفات لأكثر من ثلاثة آلاف عام وربما يكون موسى قد شاهدهما .

وبعد أسابيع من الحفر والتنقيب وفى الأول من نوفمبر ١٨٣١ لم يستغرق الأمر من المهندسين الفرنسيين سوى خمس وعشرين دقيقة لإنزال المسلة الغربية «لكن الأمر تطلب ستة أسابيع لسحبها لمسافة ٤٥٠ قدما فقط حتى نهر النيل» لتبدأ رحلتها هدية أخرى من محمد على لفرنسا .

كان محمد على قد منح فرنسا فى الأصل فى الأسكندرية «مسلة كيلوباترا» المنصوبة الآن فى حديقة سنترال بارك فى نيويورك. لكن بعد أن شاهد شامبليون عظمة مسلتى الأقصر عام ١٨٢٩ كتب إلى دروفيتي: هل رددت على مشروع انزال المسلة من الأسكندرية؟ آمل أن تصلك هذه الرسالة في الوقت المناسب لتقترح على باريس فكرة أفضل بالحصول على إحدى مسلتى الأقصر بدلا من تلك البالية التعسة بالميناء القديم. إنها أليق «بأمتنا» وبالوزير وبك.

وكالزرافة مسلة فصلت مسلة الأقصر عن رفيقتها ونقلت إلى باريس.. وأعلن محمد على «إننى لم أفعل لفرنسا شيئاً لم تفعله لى». فإن أعطيتها أنقاض حضارة قديمة فهى مقابل الحضارة الحديثة التى غرستها فى الشرق وربما تصل مسلة طيبة باريس فى أمان لتصنع رباطا بين المدينتين أبد الدهر..

وتوفى شامبليون قبل عام من وصول المسلة إلى باريس فى ٢٣ ديسمبر عام ١٨٣٢ الذى كان سيتم فيه عامه الثالث والأربعين. وظلت المسلة رابضة لثمانية أشهر على السفينة الأقصر التى بنيت خصيصا لإحضار المسلة فى رحلة طويلة عبر النيل ثم أعالى



نصب المسلة المصرية فى ميدان الكونكورد

البحار لتصل بها إلى لوهافر لتبحر بالسين وصولا للرصيف فى لو بوان دى لاكونكورد. وفى أغسطس ١٨٣٤ أنزلت المسلة على الرصيف ظلت مشونة على جانبها لمدة عامين آخرين.. وفى ٢٥ أكتوبر ١٨٣٦ نصبت المسلة فى ميدان الكونكورد حيث سبق ونصبت المقصلة إبان الثورة.

وكشف الحفر والتنقيب حول المسلة عن وجود تماثيل لسعدان الإخصاب الأفريقى حول قاعدة المسلة - تلك الحيوانات التى جعل ضجيج طقوس تحيتها عند الفجر تجسيدا مقدسا لتحوت إله الحكمة عند قدماء المصريين .. ورافقت تماثيل السعدان الأفريقية المسلة حتى باريس لكن لويس - فيليب آخر ملوك فرنسا اعتبرها غير لائقة بنصب عام وخصصها للوفر. وبدلا من التماثيل حملت قاعدة المسلة فى باريس عراقة أصلها ورفعها أمام حشد هائل إضافة إلى نقوش مذهبة توضح كيفية نصبها. وليست لدينا أدنى فكرة لكن يمكننا فقط تخمين كيف آنجز المصريون القدماء هذا العمل.

ورد لويس - فيليب على الهدية «المسلة» بإهداء محمد على تحفة فنية عبارة عن برج ساعة من ثلاثة أدوار لم تعمل على

الاطلاق منذ الوصول إلى القاهرة. ومع أنها ظلت بدون جدوى فقد بقيت تلك الآلة الغربية التى أدمجت فى مسجده الكبير الذى بناه ليخلد به ذكراه مع ذلك رمزا لولع الوالى بفرنسا وكل ما ساعدته على إنجازه.. وفيما تدور حركة المرور متفجرة حول مسلة الأقصر فى ميدان الكونكورد ترتفع الساعة الحلية إلى جانب الهلال بين قباب قبر البربرى القديم.

وفى ثلاثينات القرن التاسع عشر غزا محمد على الشام ليفتح صفحة العداء ضد سادته العثمانيين. كان محمد على فى ذروة مكانته الدولية عام ١٨٣٩ عندما تمكنت قوات سيف من هزيمة قوات السلطان التى دربها الألمان واتجهت للهجوم على الآستانة ذاتها . وتردد الوالى رغبة منه فى عدم استثارة عداء أوروبا من دون ضمان التأييد الفرنسى بما يعجل بأزمة دولية تهدد بحرب بين بريطانيا وفرنسا . وفى يونيو ١٨٤٠ خرجت فرنسا من حربها مع إنجلترا حول مصر وأجبرت على دخول تحالف آخر مع روسيا ضد والى مصر. وبدون التأييد الفرنسى الذى سعى إليه ورعاه وعول عليه لعقود - كانت هديتا الزرافة ومسلة الأقصر تصب فى هذا المسعى - أجبر على الباشا خفض جيشه الضخم

فرنسى التدريب والتخلى عن الشام مقابل حقوقه المورثة فى مصر.

كان سيف الذى لم يعترف به أبواه فى طفولته بمثابة الإبن لمحمد على، واعتنق الإسلام وحمل اسم سليمان باشا وجمع ثروة من خدمته لمحمد على ولم يعد إلى وطنه فقط. والتقاه فلوبير فى الأسكندرية عام ١٨٤٩ ووصفه.. بأنه أقوى رجل فى مصر ومثير رعب الآستانة.

وتوفى يوسف بوغوص أوثق حلفاء محمد على لمدة أربعين عاما عام ١٨٤٤ بعد تقاعد حزين. وشيعت جنازته على الفور وكانت بسيطة ومتواضعة. ومع هذا غضب الوالى بشدة عندما بلغه فى الأسكندرية أن صديقة ووري الثرى بدون مراسم وبكلمات حمار غبي .. بهيمة بدأت رسالة بعث بها الوالى أهان فيها وهدد وأمر مدير القاهرة باستخراج جثة بوغوص وإعادة دفنه فى جنازة رسمية بمراسم عسكرية كاملة.

وتوفى محمد على عام ١٨٤٩ معمرا أربعة أعوام بعد الزرافة. وفى النهاية سقط فى براثن الخرف كما قيل بسبب نترات الفضة التى كانت تستخدم لعلاجه من الدوسنتاريا المزمنة التى أصابته.

ومع هذا وفى ضوء حياته الأولى وحريمه الثمانمائة فربما يكون ما أصابه هو عته الزهرى. ففى عام ١٨٢٥ ذكر بوابيه أن الوالى غالبا ما اعتاد أن يختفى فى الحريم ثلاثة أو أربعة أيام فى المرة الواحدة وأنه كان لايزال يفرط فى الشراب ويضحى كثيرا فى سبيل النساء، ومع هذا فقد كانت أحاديثه مثيرة ومفعمة بالقوة والحيوية.. ومع تدهور صحة الوالي في العقد الأخير من حياته لم يكن أمام طبيبه الخاص الدكتور كلوت بك وهو بدور فرنسى مقيم بمصر باستمرار سوى وصف الاقتصاد فى المأكل والشراب.

لم يكن محمد علي يريد أو يرغب مطلقا فى حفر قناة السويس لاعتقاده بأنها ستدفع إنجلترا لغزو مصر «وهو ما حدث بالفعل عام ١٨٨٢» وبعد حفر القناة أسرف ورثته وتمادوا فى استغلال ثروات مصر وأفلسوها لتخضع فى النهاية للحماية البريطانية. وانتهت سلالته من الملوك الصوريين بخلع ابن فاروق الأول من العرش عام ١٩٥٣.

وتوفى بيرناردينو دروفيتى عام ١٨٥٢ بعد معاناة مع الخرف أيضاً. وكون ثروة طائلة من المصريات وكان قد تقاعد كقنصل عام وعاد إلى أوروبا عام ١٨٢٩ بعيد تلقيه رسالة شامبليون من



قنصل عام بريطانيا الكولونيل كامبل ينصح محمد على بالتخلى عن خططه ضد الأتراك العثمانيين والأسطول البريطانى فى الخلفية.

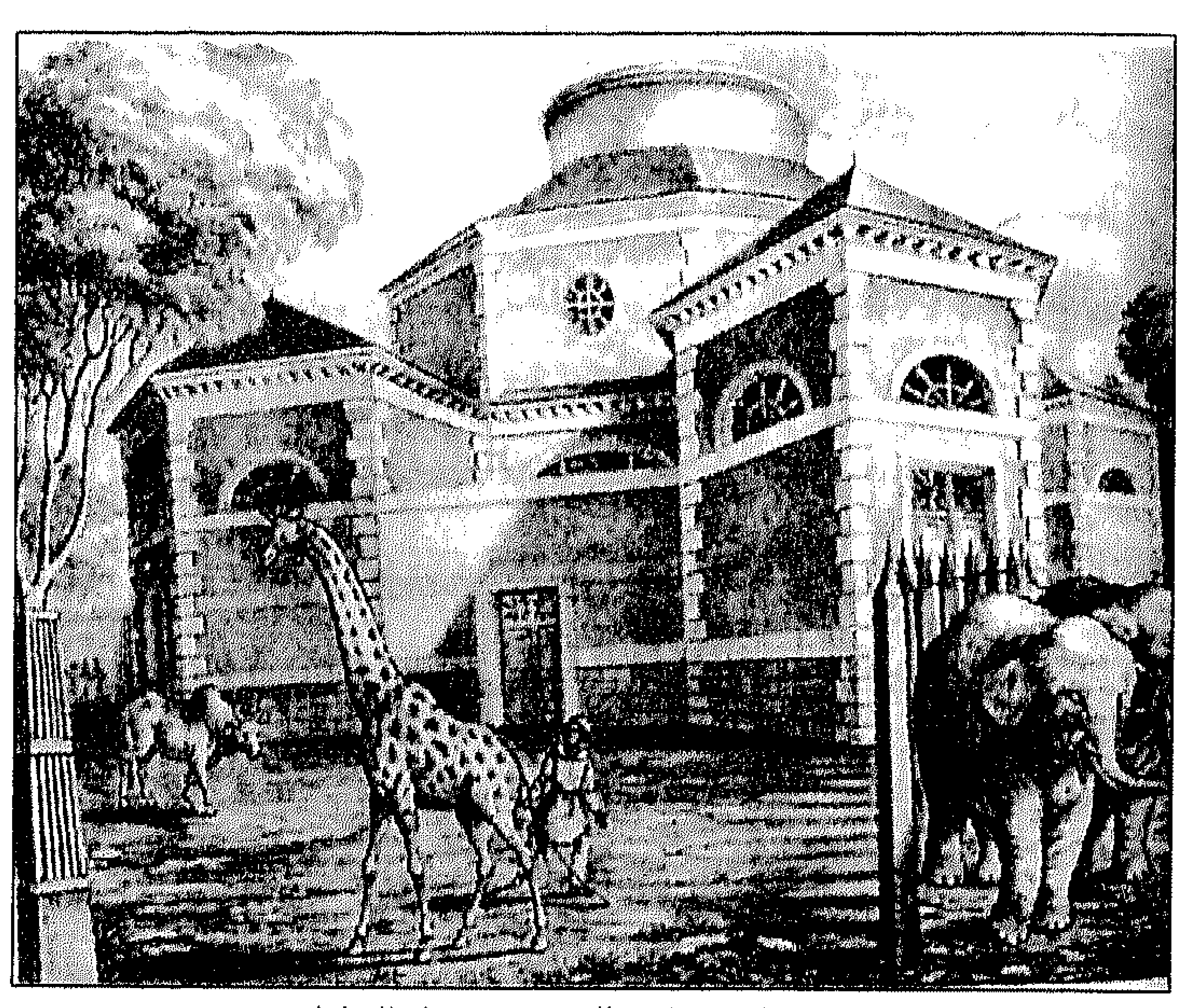
الأقصر. وفي عام ١٨٣٦ باع دروفيتي مجموعته الثالثة الصغيرة من الآثار مقابل ثلاثين ألف فرنك للمتحف المصري في برلين ، أما وقد وهنت صحته فقد عاش يوزع حياته بين قضاء الشتاء في نيس المتوسطية الجميلة والصيف في تورينو. وبقي يشكل تناقضا صارخا - يبجل في أنحاء أوروبا بإعتباره أعظم صديق للعلم وفي الوقت نفسه أيضاً شيخ سخي لعائلة كبيرة جاحدة كما قال مسئوله المصرفي.

وعاشت الزرافة نحو ثمانية عشر عاما في باريس. وكانت هناك عام ١٨٣٠ عندما أختير الملك المواطن لويس - فيليب ليخلف شارل العاشر. وكانت هناك أيضاً عندما وصلت المسلة بعد رحلة إستغرقت عامين من الأقصر. وبعد إثني عشر يوما من نصب المسلة عام ١٨٣٦ توفي شارك العاشر في منفاه الثاني وشهدت الزرافة في باريس أيضاً عام ١٨٣٧ تسيير أول قطار في فرنسا مغادرا المدينة لضاحية سان - جرمان أُن - ليه. وفي هذا العام أيضاً اكتمل أخيرا بناء قوس النصر بعد إحدى وثلاثين سنة من بدء نابليون بناءه تقديرا لعظمة جيوش الإمبراطورية. كانت الزرافة في باريس أيضاً عندما وصل نعش نابليون من سانت - هيلانة

عام ١٨٤٠ وأقيم له استعراض تحت قوس النصر ليستقر فى مثواه الأخير فى ليزانفاليد.

وفى العام ١٨٢٨ وصل أليف للفيل المقيم فى لو جاردان مستقطبا الحشود التى كان قد خاب أملها فى مشاهدة الفيل غليظ الجلد وهو ينضم إلى عائلة ... ومع هذا فلم يكن هناك أليف للزرافة. وفيما عدا ما عكسته الألواح الزجاجية للأبواب الطويلة لبيتها من صورها وأجزائها فلم تر الزرافة أحدا من أبناء جنسها طيلة ثلاثة عشر عاماً. ثم وفى السنوات الست الأخيرة من حياتها عاشت فى لو جاردان مع ثانى زرافة تتلقاها فرنسا كهدية. كانت تلك الزرافة الأنثى الفتية قد أسرت وهى رضيعة كالزرافة الأولى والمعروف أنها نقلت أيضاً عبر النيل بالمركب. وعندما وصلت إلى باريس عام ١٨٣٩ هدية من الدكتور كلوت طبيب محمد على كانت تقريبا فى مثل سن الزرافة ورفيقتها حين إنفصلتا فى الأسكندرية.

وماتت الزرافة فى ١٢ يناير ١٨٤٥ بعد سبعة أشهر من وفاة سان- هيلير. كانت قد. تأقلمت كما يقول الفرنسيون وعرضت لعقود فى ردهة المتحف فى حديقة النباتات. وفيما جاءت زرافات



الزرافة مع الافيال فى حديقة النباتات

أخرى لتمضى حياتها فى لو جاردان فقد تأقلمت هى أيضاً. وفى نهاية المطاف ولحاجة المتحف للمكان فقد وزعت الزرافات المحنطة على متاحف الأقاليم فى مختلف أنحاء فرنسا ويعتقد أن الزرافة أرسلت إلى فيران ودمرت مع متحفها فى الحرب العالمية الأولى وتردد أن الجنود الفرنسيين انتشلوا ما بقى من رقبتها ورأسها من بين الأنقاض ونصبوها تطل على خنادقهم كنكتة الفجر على الألمان.

لكن لم تكن تلك هى الزرافة أبدا .

واليوم وقد تم التعرف عليها بشكل حاسم من علاماتها باللوحات التى أمر برسمها سان - هيلير فإنها تقف بأسفل درج متحف فى لاروشيل على الساحل الفرنسى الغربى.

لم يكن متحف لافاى سوى جوهرة صغيرة غريبة فى مجموعة بلدية، قصر سابق لرجل ظلت دواليب تحفه التى ضمتها غرفة واحدة تنمو لتستحوذ على المنزل كله. ورغبة منه فى الحفاظ على مجموعته سليمة تبرع كليمينت لافاى بالقصر وحديقة نباتاته الصغيرة لمدينة لاروشيل أثناء حياته. وقبيل وفاته عام ١٧٨٢ فتح المتحف أمام الجمهور. ومنذ ذلك الحين أخذ فى التطور ليصبح

متحف لاروشيل للتاريخ الطبيعى ليس فقط تكريما لسحر الهواة لمؤسسة بل أيضاً تخليداً للتحف بشكل عام. وتتراكم وتتصل غرابة الأحداث والأشخاص لتصوغ علاقات تحير وتثير الاهتمام كما لو كان المرء يسبر في عجب ما يدور بعقل الإنسان...

وعرض الجمل الذى ركبه نابليون فى مصر محنطا مع الزرافة لكنه نقل بعد حين إلى المتحف النابليونى فى جزيرة إلبا . ومع ذلك فإن إنسان أورانج أوتان «إنسان الغاب» المحنط الأثير لدى الإمبراطورة جوزفين معروض أسفل الدرج أما أعلى الدرج فيوجد ستة منه ويمكن أيضاً رؤية رؤوس بشرية منكمشة فى حجم لعبة اليويو وبجانبها هيكل عظمى يرجع لثلمائة عام لطائر الدودو المنقرض غير الطائر والجهاز الهضمى لنسر محفوظ فى الفور مالدهايد.

وجدران الدرج العالية حول الزرافة مغطاة بمجموعة المتحف من الرؤوس والجماجم والقرون المغبرة لذوات الأربع من مختلف الأشكال الملتوية والأحجام – من ظبى الدقدق الأفريقى إلى الموظ الأمريكى الشمالى – مثبتة كالشعلات، تنويعات نابضة بالحيوية

لقضية النشوء.. ونزولا على الدرابزين من الدور العلوى نجد ثلاثة جماجم ضخمة لمارد البحر تحدق فى الزرافة.

لم تكن الزرافة أيا من هؤلاء لا ضحية ولا ضارى توصف فقط من زاوية الحيوانات الأخرى بارتباطها الأسطورى بالبشر، وتيم بها حتى العلماء المحدثون ووصفها أحدهم.. بأنها تتمتع برقة متناهية لا مثيل لها... فبوسع الطفل أن يسحب هذا الحيوان العملاق بحبل صغير حيثما أراد..

وحتى العالم سان - هيلير مؤسس علم الحيوان الخبير فى الكائنات المشوهة (المخلوقات الغريبة) فى الطبيعة.. والعاطفة المتبادلة.. بين الأنواع حار من تفرد الزرافة. متسائلا فى تقريره الرسمى: ما هو الغرض من وجود الزرافة؟. ولم يسع العالم الجليل سوى أن يخلص فى تعجب تام إلى أنه.. من دون شك فمن غير المجدى تفسير كيف ولماذا تقررت طبيعة الأشياء هكذا؟..

وإذا ذهبت لرؤية الزرافة فى لاروشيل فلا تنحرف يسارا عبر الطابق الأرضى للمتحف، فالاتجاه يسارا يفضى بك إلى درج خشبى عتيق ورغم جماله إلا أنك لن تجد الزرافة هناك، واسلك يمينك خروجا من الغرفة الأولى المليئة بالفراشات مرورا بالأسماك

والرخويات والهياكل العظمية للحيوانات آكلة اللحوم والحيوانات الرئيسة والثدييات الأخرى حتى تصل إلى التمساح الإيطالى المتحجر الذى يعود إلى ما قبل التاريخ، ثم تطلع بناظريك بكل متسع للدرج الحجرى ستجدها تمعن النظر إليك فى ود.

وباختيار موقعها ببراعة متناهية تجد رأسها تميل لتبدو عيناها السوداوان ترنو إليك وأنت ترتقى الدرج، وتعرفها لوحة بكل بساطة بأنها «زرافة من سنار». وحتى مع الطول الذى تضيفه!! بالقاعدة التى تقف عليها تبدو الزرافة مع ذلك صغيرة دقيقة بما ينطوى عليه ذلك من مفاجأة. أما وقد حفظت بوسائل ساذجة قبل أن يتحول التحنيط إلى فن فإنها الآن شديدة الهشاشة بما يستحيل معه تسفيرها، وسدت النوافذ الطويلة خلفها بألواح خشبية لحمايتها من تأثير أشعة الشمس. وبدلا من هذا تسلط أضواء كهربائية لتومض فى عينيها عاكسة ظلها على الحائط الأبيض المجاور لها وهى مظللة كما لو كانت لاتزال داخل خيمتها على متن فلوكة تتهادى مبحرة على صفحة النيل.

الفهـــــرس

رقم الإيداع
٢٠٠٠/١٨٨٩٣
I. S. B. N
977- 07- 0747 - 3

روايات الهلال
تقدم:

نقطة النور

تأليف:
بهاء طاهر

تصدر ١٥ يناير ٢٠٠١

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

كتاب الهلال القادم

حديث الزمان

كتاب لم يسبق نشره

بقلم :
د. أحمد زكى

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

نموذج الاشتراك فى كتاب الهلال

يمكنكم الحصول على خصم ١٠٪ من قيمة الاشتراك فى كتاب الهلال بارسال هذا الكوبون مرفقا به حوالة بريدية غير حكومية داخل (ج.م.ع) أو بشيك مصرفى (باقى دول العالم) بقيمة الاشتراك لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل بخطاب لإدارة الاشتراكات .

الاسم : ....

العنوان : ....

مدة الاشتراك : .... التليفون ....

	داخل ج.م.ع. جنيه	البلاد العربية دولار	آسيا - أوربا أفريقيا دولار	أمريكا الهند - كندا دولار	باقى دول العالم دولار
اشتراك سنوى	٥٤	٢٧	٣٦	٣٦	٤٥
اشتراك ٦ شهور	٢٧	١٤	١٨	١٨	٢٣

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها داخل ج . م .ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة ـ ص . ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

هذا الكتاب

اضافة متميزة لشكل أدبى توارى فى أيامنا رغم ازدياد الحاجة إليه. فمع ما نراه من زخم وتزاحم معلوماتى ويسر الحصول على المعلومة إلا أنها تظل فى النهاية معلومة مجردة خالية من البعد الانسانى والروح الأدبية بما تضفيه عين الرحالة بنظرتها الانسانية من لمسات على التفاصيل والوقائع.

أشادت به مجلة نيوزويك كقطعة نادرة من أدب الرحلات تبث الحياة فى شخوصه وترسم صورة مفعمة بالحيوية فى مسيرة الزرافة وحياتها .

وعنه كتبت صحيفة «لوس انجيليس تايمز» ، أنه مجموعة من الحقائق الراقية صاغها حيوانٌ غامض وجمع خيوطها كاتب متألق مشيعا فيها جوا وروحا نابضة بالحياة والنشاط .

أما نيويورك تايمز فقد نوهت بالجهد المتميز للتأريخ لرحلة الزرافة إبحاراً فى الزمن لنجد بين أيدينا قصة بالغة الفتنة والجمال ، نقدمها للقارىء العربى والمكتبة العربية بحكم الارتباط بموضوعه نقطة مضيئة فى تاريخ عربى يحفل بالكثير الذى يبعث على الرضا .


روايات مصرية للجيب
النغمة الجميلة العذبة فى ربوع الوطن العربى من مشرقه إلى مغربه
روايات مصرية للجيب
لفتح آفاق الثقافة والمعرفة فى عقول الأولاد والبنات
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع